عولمة التنمية أم تنمية التخلّف؟

لُعبة الأشياء والأفكار في العالم العربي

ناصر يوسف

باحث جزائري، باحث بمركز البحوث- الجامعة الإسلامية العالمية- ماليزيا

youcef.nasser@gmail.com

نتطرَّق في هذا البحث إلى المسار المفتوح للعولمة، ونتوخَّى من وراء خبايا هذا المسار الإنمائي استكشاف القيم الشيئية والفكرية التي تصنع آليات التخلّف. فنفترض أن لعولمة التخلّف إيجابياتها الفاشلة في العالم العربي؛ فهي فاشلة محلياً لأنها تجعل الاقتصاد العالمي إيجابياً كمنصَّة للاستهلاك والترفيه؛ بينما تفشل في تحويل الاقتصاد المحلي إلى منصَّة للإنتاج والتصدير. علاوةً على إيجابياتها الفاشلة، لا نشكُّ أن لها سلبيات ناجحة في العالم العربي؛ فعلى الرغم من الضمانات المريبة، التي تتيحها العولمة في النواحي التقنية والاقتصادية والتجارية والمالية؛ فإن عولمة التخلّف تلقى نجاحاً في وسط عربي سلبي في أشيائه وأفكاره (إنتاج التخلّف بأشكاله وأنواعه وتشوُّهاته).

تمهيد

كما ننطلق في هذا البحث من أن عولمة التخلّف -بإيجابياتها الفاشلة وسلبياتها الناجحة- تفضي إلى فراغ اقتصادي وتقني في العالم العربي؛ حيث التعامل مع الفراغ لا ينتج عنه إلاَّ الفراغ. فعالم فقيرٌ اقتصادياً وتكنولوجياً، من المؤكَّد ستعترضه صعوبة في التكيُّف مع قوَّة ثقافة الآخر الاقتصادية والتقنية؛ مما يتيح فرصة ثمينة للقوى الفاعلة عالمياً في أن تلامس هويّة العالم العربي الفاشل إنمائياً، وتجتهد في إفراغها من محتواها الحضاري والتاريخي. فصناع العولمة يستشرفون مستقبل تخلفها من رؤية واضحة، تتجلَّى في أن التخلُّف لا ينتج إلاَّ محتوياته، وأن الفراغ الحاصل في العالم العربي لا يتكيَّف إلاَّ مع الفراغ الذي يجعل العولمة لا تتحكَّم في مسارها الإنمائي؛ فتضرب خبط عشواء؛ مما يزيد من فرص استغلال العولمة لأشياء العالم العربي.

لا خلاف في أن آليات التخلّف تقف حجر عثرة أمام تفعيل أخلاقيات التنمية، التي يكون الإنسان مركزها الفاعل، كلّما تعلَّق الأمر بإنجاز الأهم؛ ففي غياب هذا الإنسان، لا شكَّ أن العولمة، التي هي ميزة من صنع الإنسان، ستكون ضحيَّة في عالم متخلّف (عولمة التخلّف). فالإنسان في العالم العربي -في حضور الفساد- يمتلك المقدرة على تحويل أفكار العولمة الإيجابية إلى أشياء محلِّية فاشلة، كما لو كان يقتدر أيضاً -في غياب الفساد- على تحويل الأشياء السلبية للعولمة إلى أفكار محلِّية ناجحة؛ ولكنه لا يريد لأنه لا يستطيع. فالعالم الغربي الفوضوي في أفكاره يكاد يكون مولعاً بالأشياء الفقيرة من كل فكر؛ بل لا نراه يهتم إذا ما كانت هذه الأشياء مغلَّفة بأفكار تعمِّق من هوَّة التخلّف، وتجلب عناصر الفقر بكل أشكاله وإشكالاته.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

لا نعتقد أن العولمة بكل جبروتها، سوف تصنع شروط التقدم في وسط عربي، نلفي فيه الإنسان مزهواً بفقره الإنمائي والإنساني والأخلاقي؛ لأن الفقر في الأفكار تفرضه أشياء يسيرة تُستورَد؛ بينما الغنى في الأشياء تصنعه أفكار عسيرة تُستولَد. وإذا كانت العولمة حزمة من الأفكار التي تصنع التقدُّم في العالم المنتج، فهي فُتات من الأشياء التي تصنع التخلّف في العالم المستهلك؛ وهل يستهلك العالم العربي إلاَّ الفتات بدافع الاستمرار في فوضويته الشيئية؟ إن «المشروع الفكري الثقافي للرأسمالية العولمية هو إقناع الناس بأن يستهلكوا أكثر من حاجاتهم البيولوجية الطبيعية ليسهموا في استمرار عملية تراكم رأس المال بغاية الربح الخاص، وبكلمات أخرى للتأكد من أن النظام الرأسمالي العالمي مستمر للأبد. تعلن ثقافة الاستهلاك حرفياً، أن معنى الحياة موجود في الأشياء التي تملكها وبذلك فـ:(أن تستهلك) يعني أننا أحياء تماماً، وكي نبقى أحياء تماماً يجب أن نستهلك باستمرار».[1]

وعليه، فإن هذا البحث، يربط العولمة في العالم المتقدّم بالأفكار، كما يربط العولمة في العالم المتخلّف بالأشياء. وانطلاقاً من هذه اللعبة الغامضة بين الأشياء والأفكار، سنتَّخذ من الحفر داخل أبنية العولمة التي هي أشياء وأفكار معاً، طريقاً نحاول من خلاله استنطاق عناصر التخلّف المرتبطة بجذور الأشياء العصيّة على الأفكار في العالم العربي، والتي تسهم في تنمية التخلّف في عالم يتعامل مع العولمة من منطلق سلبي، انعكس عليه بالتخلّف وألصق بالعولمة صفة تنمية التخلّف.

١. إشكالية العولمة: الفهوم والهموم

إذا كان لنا أن نقدِّم تعريفاً موجزاً للعولمة نقول: إن العولمة توجُّه حضاري يتوخَّى الحصول على مكاسب تخترق المكان فتقرِّبه وتتجاوز الزمان فتختصره. وهي منبت فكري فلسفي واضح المعالم في تعامله مع الماضي وفي صنعه للحاضر وفي تصوُّره للمستقبل. كما أنها ثابتة المحطّات في مرونة تحويل البضائع بالكيفية التي تجعل من المنبت الفكري التي قامت على أرضيته أكثر عطاءً وأينع ثمراً وأشدّ إغراءً. فالعولمة معطاءة في عالم عربي يفتقد إلى هذا العنصر القيمي، وهي مثمرة لأنها حقَّقت أهدافها وغاياتها في عالم غير ناضج لثماره، وهي مغرية لأنها جمعت لديها عناصر الثمرة والعطاء. ومثل هذه الدينامية التي تتميَّز بها جعلها أكثر تغلغلاً من أي توجُّه فكري أيديولوجي سبق وأن انشدَّ له العالم العربي؛ لأن العولمة الذكية تتعامل مع الأفكار والأشياء بذكاء يمنح للاعتبارات العملية قيمتها العلمية. فالعولمة لا تهمِّش الأفكار بهدف تراكم الأشياء، كما هو الشأن في العالم العربي الذي يستورد الأشياء فيسهم بها في تعطيل الأفكار، كما أنها لا ترفض الأشياء لتفرض الأفكار، كما درج الفعل العربي مع الأيديولوجيات الاشتراكية والقمعية التي جعلت العالم العربي التابع لهذه الأيديولوجيات الهامدة، فقيراً من أية بادرة إنتاجية فاعلة.

١- ليسلي سكلير، «الحركات الاجتماعية والرأسمالية العالمية»، في:ج.تيمونزروبيرتس وأيمي هايت: من الحداثة إلى العولمة: رؤية ووجهات نظر في قضية التطور والتغيير الاجتماعي، ترجمة: سمر الشيشكلي، عالم المعرفة؛ ٣١٠ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م،ج٢، ص٢٤٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن العولمة تجمع بين الأفكار والأشياء، حيث يكمن سر نجاحها في فترة زمنية وجيزة، لاسيما أن «خطورة بعض الأفكار المعاصرة تأتي لأنها مبادرة من قبل مفكرين تقليديين، بل لأنها من قبل مفكّرين يعملون لصالح الشركات الكبرى، ويعملون بشكل مباشر وغير مَباشر على الترويج لأيديولوجياتها بطريقة بالغة الذكاء، لأنها تخفي أهدافها الحقيقية وراء شعارات جذّابة يمكن أن تجذب لها ملايين الناس، خصوصاً في الدول النامية حيث تنخفض معدلات الوعي الاجتماعي»[٢].

هل تعود هموم الأمة العربية والإسلامية تجاه العولمة إلى كونها أمة متقاعسة عن الإنتاج، حتى لو توافرت لها عناصر الإنتاج فإنها لا تريد، أو أن العولمة تبشِّر بمزيد من الإنجاز؟ لا شك أن العالم العربي ينظر إلى العولمة من زاوية شيئية وليست فكرية. مثل هذه النظرة الخاطئة أمكنها أن تحوِّل العولمة إلى همٍّ شيئي بدلاً من إبقائها في دائرة مفهومها الفكري بدافع الإفادة من جوانبها المضيئة. فالعولمة فكرٌ منتج في العالم المتقدِّم الذي اعتنى بها حتى أينعت ثمارها؛ أما في العالم المتخلِّف الذي يقطف ثمارها –من غير جهد يبذل– لا شك أنه ستصيبها عدوى التخلّف؛ لأن طريقة القطف كانت هي الأخرى متخلّفة، فهي طريقة أقرب إلى عملية شراء التنمية، أي حصول قطف للأفكار «التكنولوجيا» بالأشياء «النفط».

لا نضيف جديداً إذا جهرنا بالقول، إن العالم العربي لا يحسن اختار ما ينبغي قطفه؛ فلم يراع التقاليد التي تحثُّ على الأكل مما يزرع، ولم يحترم القيم التي تدعو إلى حسن الجوار بالاستفادة من الآخر من غير أن يكون عالة عليه، أو من غير أن يكون عرضة للاستعباد والاستغلال. لقد أصبح التخلّف –وفي ظل العولمة– صفة ملازمة للعالم العربي. فإذا ذكرنا التخلّف جاء العالم العربي مكبّاً على وجهه، إلا من يحاول أن يقتفي أثر الغرب، ولكن في طريق تنمية التخلّف التي اشتهر مصطلحها في منتصف القرن الماضي، وقد جاء على سبيل المثال: «إن التخلف الحالي لأميركا اللاتنية هو نتيجة مساهمتها الطويلة لقرون في عملية التنمية الرأسمالية (...)، إن تنمية التخلّف هذه مستمرة اليوم في تبعية تشيلي المتزايدة للعواصم العالمية»[٣].

إن العولمة بوصفها فكرة قد أينعت في وقت كان فيه العالم العربي ينفض عنه غبار الاستعمار؛ وباعتبارها فكرة أثمرت في وقت كان فيه العالم العربي يعاني من وطأة التخلّف. فقد «نشأ مشروع العولمة من مشروع التنمية، لأن التنمية تضمنت علاقات دولية معينة. تؤكّد الولايات المتحدة بشكل خاص على مبدأ المشروع الاقتصادي وعلى استخدام الإجراءات الثنائية، (يعني الأرصدة الدولارية وضمانات الاستثمار والسوق)، وكي تضمن هذا، شجَّعت الدمج الاقتصادي المتخطي للحدود القومية. وحالما امتد هذا البعد المتخطّي للحدود القومية إلى الشركات في أوروبا واليابان وبعض دول العالم الثالث»[٤].

٢- السيد يس، المعلوماتية وحضارة العولمة.. رؤية نقدية عربية، القاهرة، نهضة مصر، ٢٠٠١م، ص١٤٦.
٣- أندريه جوندر فرانك، "تنمية التخلّف"، في: ج. تيمونز روبيرتس وأيمي هايت، من الحداثة إلى العولمة: رؤية ووجهات نظر في قضية التطور والتغيير الاجتماعي، مرجع سابق،ج٢، ص٢٤٨.
٤- فيليب ما كمايل، «العولمة: أساطير وحقائق»، في: ج. تيمونز روبيرتس وأيمي هايت، من الحداثة إلى العولمة: رؤية ووجهات نظر في قضية التطور والتغيير المرجع نفسه مج٢، ص١٥٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من جهة أخرى، لا يمكن للعولمة أن تستمر في تقلُّباتها وتطوُّراتها خارج عنصر التغيير؛ فالتغيير الذي يتعامل معه العالم العربي باعتباره عدوّاً يعد مهمة صعبة في عالم المعلوماتية التي هي معلَم بارز من معالم العولمة. فالتغيير في هذه الحالة يقرن بالتجديد؛ أما في العالم العربي فإن قدوم التغيير غالباً ما يبشِّر بحدوث فوضى أمكنها أن تفضي إلى تعميق هوَّة الهموم تجاه فهوم العولمة، وقد تجعل من التخلّف يتراكم ويتضخّم. وهذا كله يكون عرضة لتدخل العولمة في إعمال تغيير في البيئة العربية والإسلامية تكون أقرب إلى الفوضى منها إلى الاستقرار؛ لأن العولمة التي هي ثمرة التغيير يتعذَّر عليها الانتشار الإيجابي داخل عالم يرفض التغيير.

صحيح، أن العالم العربي استجاب للتغيير الأيديولوجي الذي فرضته الأيديولوجيات الاشتراكية والقمعية، إلا أن هذا التغيير أتى سلبياً وفوضوياً وكارثياً؛ لأن «التغيير هو الشيء الوحيد الذي يمكن التنبؤ به في ممارسات العمل المستقبلية»[٥]. بينما العالم العربي لم يتنبأ بأنه لا مستقبل لهذه الأيديولوجيات التي ظلّت لفترة طويلة تعبث بمقدرات الإنسان المستقبلي. إن التغيير الذي تشترطه العولمة لصناعة التنمية هو الذي يراه ألفن توفلر (A.TUFLER) بأنّه مجموعة من التفاعلات.[٦]

اكتشاف! تطبيق! تأثير! انتشار

لا شك أن العالم العربي يفتقر إلى هذه المحدّدات؛ فهو لم يكتشف حتى يطبِّق، ولم يطبِّق حتى يؤثِّر، ولم يؤثِّر حتى ينتشر. وهو إن ولج العولمة بدافع العصرنة سيكون أكثر تخلّفاً لأنه حرق جميع مراحل التغيير. من هذا المنطلق نرى، مرّة أخرى، أن العولمة التي يستوردها العالم العربي –من غير إبداع لآلياتها– هي عولمة متخلّفة في جميع النواحي الحضارية، بل ستمنحه الأشياء الزائلة وتفسد عليه قيمه الدائمة؛ إذ تقوم العولمة في جميع أشكالها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على مبدأ عام غير إنساني: «شيء تأخذه مقابل شيء تقدمه»[٧]. ومثل هذا ينطبق تماماً على المجتمع العربي.

٢. النشأة الأيديولوجية للعولمة.. ومسؤولية الإنسان العربي عن نهاية التاريخ

يبدو من الصعوبة بمكان اختراق ذات الإنسان إلا في الحالات التي تكون فيها فارغة؛ فالفراغ له قابلية للاختراق. يتقاسم هذا الفراغ –في نظر صناع العولمة من الليبراليين الجدد– كلاً من الإنسان الماركسي، والإنسان المسلم. فالماركسي على الرغم من تبجحه المادي، يفتقر إلى هذا العنصر المادي المهم، وبالمثل فإن الإنسان المسلم الموغل في الروحانيات يفتقد إلى هذه الروعة الإلهية؛ فكلاهما يتنفَّس خارج محيطه العام، وهنا تكمن الأزمة. في حين أن

٥- دي كامب، مدير القرن ٢١: مهارات إدارية للألفية الجديدة المنصورة، دار الوفاء، ٢٠٠٠م، ص٥٦.
٦- المرجع السابق، ص٥٦.
٧- نورينا هيرتس، السيطرة الصامتة: الرأسمالية العالمية وموت الديموقراطية، ترجمة: صدقي حطاب، عالم المعرفة؛ ٣٣٦، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٢١٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الليبرالي قد يصعب اختراقه في مثل هذه الحالات، ليس لأنه يفتقر إلى المعاني السامية للحرية فحسب، وإنما لكونه فوضوي السلوك. فهو لا يطرح برنامجاً محدَّداً يكون بمثابة قاعدة للحكم عليه، ومن ثم فإن ذات الإنسان الليبرالي تبرهن في كل الأزمات بأنها غير قابلة للاختراق.

إذاً، هناك فراغ متعدّد؛ فراغ مادي، وفراغ روحي، وفراغ «مقنَّع». مثل هذه الفراغات مسؤولة عن أعاصير العولمة التي تجتاح العالم المعاصر.

٢-١ الإنسان المسلم الفاعل (إنسان القيم)

لقد ظهر الإنسان الروحي بعد إسدال الستار معلناً عن نهاية الدور الجاهلي، حيث الانتقال من اللحظة الجاهلية إلى اللحظة الجديدة، كان يتمُّ عبر جسر الروح، أو بمعنى أن الروح كانت الرابط الذي لا تنفصم عراه بين الأشياء التي كنت تفكِّر للإنسان الجاهلي (التفكير في الغارات «غنيمة الحاجات»، والتفكير في الثأرات «غنيمة الأجساد»)، وبين الأفكار الجديدة. فالأشياء كانت تكبِّل حياة الإنسان الجاهلي وتربطها بكثير من الآلام والمشاق اليومي الناتج عن التماسه العنيف لامتلاك هذه الأشياء، مما ضخَّم مجتمعه بقضايا شيئية لا علاقة لها بالتنظيم أو بتحسين هذا الامتلاك غير المشروع.

فالتاريخ الجاهلي المقرون بمجتمع الأشياء، لما ضاق وتضخّم، أعلن عن لحظة الانفجار الداخلي في شكل نهاية لهذا التاريخ. فنهاية التاريخ الجاهلي هي نهاية تاريخ أيديولوجية الأشياء في المجتمع الجاهلي. والمعنى المستخلص من ذلك هو أن الامتلاك العنيف للأشياء، ضرب من الجاهلية، والجاهلية هي امتلاك غير مشروع لهذه الأشياء. إنها أيديولوجية الإنسان الجاهلي الذي كان يفكِّر بالأشياء وفي الأشياء؛ فشيئية الفكر في المجتمع الجاهلي جعلت المفكَّر فيه شيئياً هو الآخر.

لقد انتشرت الفوضى الاجتماعية الجاهلية في آفاق الحياة العربية. فمثلاً الشعر الذي كان يعبِّر عن الاتجاه الفكري كان لا يخرج عن دائرة الأشياء، والأشياء باعتبارها أيديولوجية العصر الجاهلي لا تعبِّر فقط عن الممتلكات المادية، وإنما عن كل ما لا يمكنه أن يتحول إلى قيمة اجتماعية وأخلاقية تدفع بالإنسان إلى إكمال العقل والسيطرة على الدوافع الغريزية. وهذا ما جعل الشعر الجاهلي الجميل يخفق في هذا العطاء القيمي -باستثناء شعر الحكمة- ويميل أكثر إلى نزعة الامتلاك غير المشروع. فالصيغة التقنية «الأشياء» تحوَّلت إلى صيغة فنية «الشعر».

لقد اقترنت نهاية تاريخ الأشياء ببداية تاريخ الأفكار؛ فعامل الاقتران هو «الروح»؛ ولأن هذا التاريخ قد انتهى بعامل روح جديدة فقد ارتبط الامتلاك المشروع بحضور هذه الروح؛ ولهذا تسمَّى الإنسان العربي الجاهلي ما بعد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجاهلية بالإنسان الروحي (إنسان القيم)، أو الإنسان التابع للقيم الناضجة ثمارها. وهذا الاسم غير مرتبط بالدين الإسلامي نفسه، لأنه لو كان الأمر كذلك لسمي إنسان الديانات الروحية الأخرى مسلماً. وإنما الروح هنا مقرونة بعقيدة الدين الجديد الناسخ لمرحلة مادية عقيمة الروح، وذلك بالعقيدة على مستوى العبادة وبالرسالة على مستوى العمل.

الروح منقسمة على العقيدة والرسالة. فنهاية الروح بوصفها عقيدة تتنافى مع الحقيقة المطلقة، فهذا موضوع ثابت لا يمكن لمسلم عاقل أن يتطرَّق إليه بدافع الجدل، وإنما هو من المسلَّمات والحقائق المطلقة. إن ما يعنينا هو نهاية الروح بوصفها رسالة. وقبل الاستباق نحو النهاية نتطرَّق إلى البداية التي كانت سبباً في النهاية التاريخية للحدث الجاهلي.

٢-٢ رسالة الفاعل الإنساني

لقد قامت روح الرسالة الإسلامية على هذه المرتكزات الحيوية:

- خدمة الفرد باعتباره مجتمعاً والمجتمع بوصفه فرداً.
- اعتبار العمل قيمة اجتماعية قبل أن يكون قيمة مادية.
- خدمة الإنسانية.

لقد كانت روح الرسالة في المجتمع الإسلامي الأول تتحرّك داخل إطار الخدمة الإنسانية، مما أسبغ على هذه الرسالة روح التميُّز الإنساني. إن الخدمة المزدوجة كما هي في المرتكز الحيوي الأوّل لروح الرسالة الإسلامية، غلب عليها طابع الإيثار وليس الحاجة أو المنفعة. فالإيثار كان يغني كثيراً من المشاكل الاقتصادية بحلول حاسمة، كما كان الإخاء يسهم في حسم القضايا الاجتماعية الشائكة. فالإيثار هو وعي الفرد المسلم بمجتمعه والإحساس بمعاناته.

فربط العمل بوصفه قيمة اجتماعية مساوية بين الفرد الغني والمجتمع الفقير، بين الصانع والفلاَّح، جعلت المجتمع غنياً، أي جعلت كل الأفراد سواسية أمام مبدأ العمل «النشاط الحيوي»، بغض النظر عن نتائج العمل التي ترجع إلى خالق العمل. فمبدأ احترام عمل الفرد هو الذي أغنى المجتمع الإسلامي الأول؛ أما عن الغنى المادي فكان من اختصاص عقيدة الفرد العامل، التي ترى أن الإيمان بخالق العمل يفرض التسليم بنتائج العمل.

لقد كان عمل الفرد الغني والمجتمع الفقير في خدمة المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية؛ كلٌّ يسلِّم بثروة عمله مهما كان مقدارها. فهذه المؤسسات كانت تنمو بقيمة العمل نفسه وليس بقيمة العامل؛ لأن القيمة الأولى اجتماعية- تعايشية؛ أما القيمة الثانية فمادية- طبقية. وهذا معناه أن الطبقية في المجتمع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإسلامي الأول كانت تعايشية أكثر منها استغلالية. وهذا ما يفسر المرتكز الثاني الحيوي، ويؤكّد أن العقيدة موجّه رئيس لروح الرسالة، لأن هذا التعايش الطبقي يكاد ينعدم في المجتمعات الليبرالية والاشتراكية.

إن المقصود بالروح في المركزين الأول والثاني هو الدافع الحيوي والسلوك القويم في توجيه الإنسان نحو العمل الاجتماعي، أما الروح في المرتكز الثالث، والذي هو خدمة الإنسانية، فينطوي على معانٍ سامية تكمن في اختراق الذات الخادمة لذات الآخر. وهذا ما يتردَّد على ألسنة العلماء والخبراء بأن الدافع الحيوي يمر بأزمة روحية وأخلاقية توشك أن تفتك بخلايا الجسد الأيديولوجي، بعد أن أعلن جهاز الكشف الاجتماعي عن أزمة في روح الرسالة.

ارتبطت هذه الأزمة بالذين أضنوا جهدهم المخادع في خدمة الإنسانية بطريقة غير إنسانية، ويتعلَّق الأمر بالأيديولوجية الليبرالية المعولمة التي تسعى -بوعي- إلى وأد من يخاطب النزعة الإنسانية ويأخذ بالاعتبارات الأخلاقية. وهنا تكمن روح الجاهلية التي هدفها الاغتصاب سرّا والامتلاك غير المشروع علناً تحت غطاء العطاء الإنساني. هذه الجاهلية انتهى دورها العقيم منذ أن بدأت الروح الإسلامية؛ ولكن تبقى روح الجاهلية مستمرة بتقلُّباتها الاقتصادية والتكنولوجية في غياب روح الرسالة الإسلامية التي خمدت منذ قرون، ثم نهضت بتواضع في القرن العشرين، إلاّ إن توازنها النفسي والاجتماعي قد اختلَّ، كونها اختارت طريقاً أيديولوجياً لا يتناسب مع بعدها العقدي، فنتجت عنها قيم يمكن أن نعدها فاعلة لذاتها؛ إلا أنها غير أصيلة لغيرها؛ حيث فرضت نفسها على الإنسان المسلم، وحوّلته من الإنسان الفاعل بأصالة قيمه التي ينجز بها وتستمر به (إنسان القيم) إلى إنسان يمكن القول إنه ذاب في قيم لا تنجز له ولا يستمر بها (قيم الإنسان).

٢-٣ نهاية رسالة الفاعل الإنساني

لقد مرَّ العالم العربي بعملية انتقال من العطاء العلمي إلى الرخاء الشيئي، وتحديداً من (إنسان القيم) المبدع إلى (قيم الإنسان) التابعة؛ مما أسهم في تراجع رسالة العمل التي سلَّمت روحها للجسد الماركسي المنهك؛ فهي وإن أسهمت في تأجيل انهيار الجسد، فقد عجَّلت في تشويه هياكلها الاجتماعية والاقتصادية. وقد كان فرانسيس فوكوياما حصيفاً في هذا الشأن. فهو يرى «إذا لم يتم ربط الماركسية بدول العالم الثالث الفقير لكانت قد ماتت بأسرع مما نتوقع»[٨]. ولهذا تبدو نظرية فوكوياما -في سواد سطرها الناطق وليس في بياضها المسكوت عنه- سليمة وقابلة للتطبيق، باعتبار أن الرأسمالية ستؤمُّ الجنس البشري. فهو قد انطلق في حكمه التاريخي من الفراغ المادي الماركسي والفراغ الروحي الإسلامي، مبشِّراً بأن الفراغ المقنَّع هو الذي سيسود في النهاية. وهذا معناه

٨- فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ، ترجمة وتعليق: حسين الشيخ، بيروت، دار العلوم العربية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١١٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نهاية الفراغ المادي والفراغ الروحي وبداية الفراغ المقنَّع؛ أي نهاية نظرية مادية ونظرية روحية، وبداية نظرية مقنَّعة. إذ «يمثل مشروع العولمة صيغة مؤسساتية جديدة لترسيخ الرأسمالية. إنه ينبثق من تناقضات مشروع التنمية الذي بلغ مرحلة التأزم في الثمانينيات. على الرغم من أنه يمكن القول إن العالم الثالث هو أرض الاختبار، فإن هذا المشروع الجديد للإدارة الاقتصادية عالمي بكل ما في الكلمة من معنى، إذ إن جميع الحكومات تخضع لأحكام السوق الجديدة، بالإضافة إلى ذلك، فإن لإعادة تشكيل العالم الثالث السابق أثراً متكرراً متصلاً، بما أنه يسرِّع حركة اللاجئين من الجنوب إلى الشمال ويخفض الأجور عبر العالم، فيما يدعى بـ:السباق نحو الهاوية»[٩].

إن الشيء المقنع هو الشيء المدهش فعلاً، وتبقى نظرية فوكوياما مدهشة هي الأخرى، لاسيما رسالتها الإنسانية التي ما فتئ العالم العربي يفتتن بها على المستويين الاقتصادي والسياسي. كيف ذلك؟ إذا كان العمل هو النشاط الحيوي بذاته، والنشاط الحيوي هو الإرادة بعينها؛ فإن العمل إرادة. ومن ثم فإن فوكوياما كان يرمي إلى نهاية هذه الإرادة، وهي إرادة تاريخية، منها تستقي المجتمعات أبعادها الحضارية وتنظِّم شبكاتها الاجتماعية وتكوِّن علائقها الثقافية. فالنهاية ليس كما نفهمها نهاية العمل، لأنه لو كانت كذلك، فإن العمل في المجتمعات الرأسمالية يمرُّ بضغوط اجتماعية يترجمها الإفلاس (مؤسسة العمل)؛ ولكن المعنى من النهاية هو نهاية الإرادة.

إن العمل يعبِّر عن روح الحياة والإرادة تعبّر عن روح الرسالة. والنهاية التي يشير إليها فوكوياما ليست نهاية الحياة وإنما نهاية الرسالة الماركسية والرسالة الإسلامية. فروح الحياة تطمئن إلى البقاء من غير صراع؛ ولكن روح الرسالة تفرض تحريك عوامل الصراع من أجل انتصار الحق. وهذا ما ينطبق على الاتحاد السوفياتي الذي أعلن عن نهاية الشعور بصراع البقاء، والاطمئنان إلى حياة تضمن له البقاء من غير صراع؛ أما العرب والمسلمون فيحتفظون بروح الحياة، أي يفضلون الحياة خارج الحضارة والتاريخ. ومن ثمّ فإن أي شلل يصيب الإرادة الحيوية يكون مآله الموت والنهاية، أو التخلف بالمفهوم الاقتصادي، والفساد بالمفهوم الاجتماعي. فمن لا إرادة له لا وجود له، أي من لا رسالة له لا هدى يسعى إلى تحقيقه، وإنما كل مطالبه وأمانيه تذهب سدى، وتذروها رياح الإرادة التي تتحكّم في سير روح الحياة.

الإرادة في مفهوم فوكوياما هي إرادة الرسالة الليبرالية المقنَّعة بروح الحياة لمجتمع غير عابئ بهذا الصراع. فهذه الإرادة الليبرالية مقنَّعة الآن بروح الحياة الماركسية المطمئنة لحياة من غير صراع. فخنوعها قد ضخّم من هذه الروح التي كانت ضئيلة وقابلة للتأثير في زمن الحرب الباردة. وكذلك هي الأخرى

٩- ماكمايل، العولمة: أساطير وحقائق، مرجع سابق ص١٥٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقنَّعة بروح الحياة الإسلامية الراضخة لمطالب الإرادة الليبرلية، وما تفرضه عليها الآن من مستلزمات حضارية تتمثل في ترابها (خيرات الوطن التي أسهمت في تقعيد العملية التكنولوجية في الغرب عموماً)، وإنسانها (الأدمغة المهاجرة التي أسهمت في تسريع التطور التكنولوجي)، ووقتها (وسائل ترفيه تسهم في امتصاص الوقت واستهلاكه).

مثل هذا الفراغ المقنَّع الذي استثمرته الإرادة الليبرالية في شكل عولمة، وحوَّلته إلى رسالة ذات وجود وهدف، لا يمكن أن ينجلي إلا بفاعلية الإرادة الإسلامية والدخول في مرحلة الصراع من أجل المصير والاختيار المسؤول. لماذا؟ لأن الإرادة أو روح الرسالة لها علاقة بالاختيار؛ فإن لم يكن اختياراً مسؤولاً فحتماً ستكون هناك إرادة مفروضة على النشاط الحيوي. وهذا ما نستكشفه من روح الرسالة الليبرالية التي تفرض مقاييسها الحضارية على روح الحياة الإسلامية. روح الرسالة هي الطريق إلى العولمة، ونهاية الرسالة الإسلامية هي بداية الطريق؛ مما جعل الروح بعيدة عن العولمة، وأي احتكاك بطريق العولمة يكون مآله التخلّف. فروح الرسالة الحاضرة في مجتمع ما تترجمها قوة هذا المجتمع وحيويته.

إذاً، فوكوياما في حديثه عن نهاية التاريخ كان يقصد نهاية القوة وتوالي عصر الضعف -الماركسي والإسلامي-، إذ لا قوة إلا قوة الرأسمالية. إنها قوة مقنَّعة فضحها ضعف الماركسي والإسلامي المنكشف، فهي نهاية مقنَّعة فرضتها البداية المحتشمة المنكشفة. ولهذا نهاية صراع البقاء الذي نتجت منه العولمة سيؤول إلى صراع أحادي -قد يفتك بالمجتمع الليبرالي نفسه- كما يرى فوكوياما من غير أن ينسبه إلى هذه الأحادية المتآكلة؛ إذ نلفي «فوكوياما، مع هذا يثير الشكوك حول إمكان أن يؤدي التطور التاريخي العلمي إلى سعادة الإنسان، فالتأثير النهائي لهذا التطور على سعادة البشر غامض»[١٠]. إنها نهاية على جانب كبير من التناقض، لأنها ضد قوانين الطبيعة والإرادة. فالصراع دائماً ثنائي أو متعدد. فالشعوب ليست على دين واحد أو مبدأ واحد أو أسلوب إنمائي واحد. لقد كانت العولمة وليدة انهيار نظام بريتون وودز، ومن ثم فإن العولمة تختزن في أحشائها عوامل السقوط والتخلّف، لاسيما لأولئك الذين يتعاملون معها بمنطق الأشياء. هذا وقد كانت العولمة وليدة الأشياء حيث نتجت عن أزمة الدولار الأميركي في علاقتها بالذهب بخلاف الحضارة التي تنشأ من الأفكار والأخلاق والأشياء معاً.

«إن النهاية المفاجئة، التي ألمّت بنظام بريتون وودز، علامة تشير إلى بزوغ فجر ما صار يعرف بالعولمة في اليوم الراهن. فالقرار الذي اتخذه نيكسون من طرف واحد، مهّد، بلا وعي من نيكسون، الطريق لاندلاع تطور غيَّر ملامح

١٠- عبدالوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، بيروت: دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص١٦١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاقتصاد العالمي في الأعوام الخمسة والثلاثين التالية: فقد تحررت أسواق المال من التوجيه الحكومي، وخلخلت الدول الصناعية أسس الحماية الجمركية التي كانت قد أنشأتها عقب تعرض الاقتصاد العالمي لأزمة الكساد الكبير»[١١].

إن فوكوياما بهذه النهاية المؤلمة يوهم المجتمعات العربية بأنه لا مجال للإرادة ورح الرسالة في ظلّ إرادة أحادية عالمية. فهذه النهاية تحمل -في نظره- رسالة الإطمئنان والاستقرار والأمن من الخوف والجوع في ظل الإرادة الليبرالية الأحادية والرسالة الأميركية العالمية.

لقد استغلت روح الإرادة الليبرالية روح الحياة الإسلامية وفرضت بذلك سيطرتها العالمية التي كانت تتقاسمها سابقاً مع الإرادة الماركسية. إن التاريخ الخلدوني -مثلاً- يخبر بأن روح الحياة في المجتمع المغلوب تنتهي وتذوب في روح رسالة مجتمع آخر غالب. وهذا ما يدل على «أن شعور بني إسرائيل بحالة الإنقاذ كان أقوى لديهم من غريزة المحافظة على الحياة. ولذلك فإنهم لم يترددوا في الدخول معه -أي موسى- في اليم مستسلمين للخطر»[١٢].

تستمدُّ روح الرسالة الإسلامية حياتها الحضارية من روح العقيدة؛ حيث تستمر بها في تحقيق أهداف نبيلة تخرج عن نطاق الصراع من بقاء التنوع الأيديولوجي إلى صراع من أجل نقاء النوع الإنساني، مما يجعلها في مرتبة إنسانية تلامس علو الآية الكريمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾[١٣]؛ حيث «القضية عن المجتمع الإنساني ليست حفظ النوع، لأن التناسل قد وفرته الحياة الطبيعية. فالإنسان يعيش لأهداف أخرى، والمجتمع الإنساني يقرر فكرته في مستوى آخر ليس مستوى البقاء؛ ولكن مستوى تطور النوع ورقيه، هذه هي حقيقة المجتمع الذي يبني عليها كيانه»[١٤].

ضمن هذا السلوك الجديد يمكن للإنسان المسلم أن يسهم في تحويل العولمة عن اتجاهها المتخلّف في عالمه المتخلّف، وذلك بروح الحياة (العمل بوصفه نشاطاً حيوياً)، كما قد يشارك في إيجاد حلول لمشكلات العولمة في مجتمعاته بروح الرسالة (النشاط الحيوي بوصفه إرادة)؛ لكن بإنسان القيم وليس بقيم الإنسان.

٣ . مفهوم القرية الصغيرة

لا مجال لإنكار أن العالم أصبح -تقنياً- قرية صغيرة، فهذا مسلَّم به حتى لدى رجل الشارع الذي سحرته الشبكة الإعلامية ببثِّ مشاهد وحالات ووقائع ومعلومات في لحظة وجيزة، تذكرنا بذلك السؤال الذي كنَّا نطرحه على أنفسنا دون أن نجد له جواباً، والمتمثل في: كيف يمكن للذي أوتي علماً أن ينقل عرش

١١- أولريش شيفر، انهيار الرأسمالية: أسباب إخفاق اقتصاد السوق المحررة من القيود، ترجمة: عدنان عباس علي، عالم المعرفة؛ ٣٧١ الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠١٠م، ص٥٤.

١٢- مالك بن نبي، تأملات دمشق: دار الفكر، ط ٥، ١٩٩٥م، ص١٣٧.

١٣- سورة آل عمران، الآية: ١١٠

١٤- مالك بن نبي، تأملات مرجع سابق، ص ١٥٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الملكة بلقيس قبل أن يرتدَّ طرف النبي سليمان عليه السلام؟ المقارنة بين الحدثين شاسعة وليست قابلة حتى للمقارنة أصلاً؛ لأن في الشبكة الإعلامية يظهر ذكاء الإنسان وخبثه ومحدوديته التي يترجمها نقص المعلومات وزيفها، فضلاً عن احتكارها كسراً من الأسرار؛ وفي الثانية يتجلَّى علم الإنسان وصدق المعلومات ونيِّته الحسنة وقدرته على فعل الخوارق وتوصيل المعلومات والأشياء بطريقة معجزة. ولما وصلت الأشياء (عرش الملكة ومستلزماته) لم يجعل النبي سليمان -عليه السلام- العالم قرية صغيرة؛ بل بعدما أسلمت بلقيس أصبحت سيِّدة نفسها، وقومها لم يذوبوا في العالم الكبير والمسيطر بإنسه وجنِّه، وسليمان -عليه السلام- لم يستبد، فضلاً عن أن الملكة بلقيس عندما رأت عرشها لم تندهش وإنما قالت (وكأنَّه هو)؛ بينما الإنسان المسلم لما رأى المعلومات تصله بهذا الشكل الرهيب أظهر دهشته وسلَّم أمره لصاحب الأمر الليبرالي.

هناك ضرورة تدعونا إلى إعمال العقل في هذا المشهد القرآني الذي يتجلَّى في معانيه العالية المبنى وفي أحداثه الغنية المعنى، لا للمقارنة وإنما للعبرة بأن العالمية لا يمكن أن تصبح محلية أبداً، ولا يمكن أن تنزل إلى مستواها، فهذا يتناقض مع كيانها الكبير ويضيق به. فسليمان عليه السلام لم ينزل إلى مستوى بلقيس، بل طلبها ليس أملاً في خيراتها (أشيائها) بل من أجل خيرها (إسعادها في الدنيا والآخرة).

إن سلَّمنا جدلاً أن العولمة باعتبارها مؤسسة ضخمة وغنية بالأفكار والمعلومات والأشياء تشتغل لحساب قرية صغير فقيرة ومعدمة، فإن هدف العولمة ينحو تجاه تحقيق المستوى المرغوب فيه من العملية الإنتاجية، وإلا فسينهار السقف الاستهلاكي لهذه القرية. العولمة ارتسمت معالمها منذ أمد بعيد، فمنهم من يرى أنها نشأت في منتصف الثمانينيات وبداية التسعينيات[١٥]، ومنهم من يرجعها إلى القرن الرابع بعد الميلاد، حيث تغلغلت في الفكر الغربي لقرون عديدة حتى وقتنا هذا[١٦]، وهناك من يرى أنها ظهرت بظهور موجة انبثاق القوميات الأوروبية، ودعوة الشعوب الغربية إلى الاستقلالية الوطنية، ثمّ اتسعت إلى علوم التكنولوجيا وثورة علوم الاتصال والمعلوماتية[١٧].

لقد تعدَّدت الرؤى في فهمها للعولمة، وإن اتفقت على أن واضع بصماته على هذا العطاء الزاخر مجموعة من الدول المعطاءة، التي تربأ بنفسها من أن تكون قرية صغيرة. القرية الصغيرة هي العالم العربي في الجزء المتخلّف من هذه البسيطة. إن «العالم بتعبير ريتشارد بارنتو وجون كافاناخ -في كتابهما الشركات الكونية: الإمبريالية والنظام العالمي الجديد- أصبح أصغر من الماضي، كما يحب الناس أن يرددوا، ولكن أجزاءه تتباعد ولا تتقارب. والواقع أنه في الوقت الذي تقترب فيه الاقتصادات المختلفة من بعضها بعضاً، فإن الأمم والمدن

١٥- ينظر: محمد الشبيني، صراع الثقافة العربية الإسلامية مع العولمة، بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ص ٢٥.
١٦- المرجع نفسه، ص ٢٨.
١٧- المرجع نفسه، ص ٢٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومناطق الجوار تتفرَّق. إن عمليات التكامل الاقتصادي الكوني تذكي عوامل التفكك السياسي والاجتماعي، والعلاقات الأسرية في حالة انهيار، والسلطة التي كانت راسخة تتهاوى، والعلاقات في المجتمعات المحلية تدهورت. إن الأمم أصبحت اليوم مثل الخلايا تتكاثر ولكنها تنقسم في نفس الوقت»[١٨].

على الرغم من أن العولمة تتيح كل شيء للعالم بعدما تختصره في قرية صغيرة، فهي لا تكشف للعالم المتخلّف المستهلك عن الأفكار التي أسهمت في صنع هذا الشيء؛ لأن الشيء يتعلّق بالصورة (الانتشار عبر الاختصار)؛ لكن الفكر يتعلّق بالحضور؛ إذ الحكم على الشيء يكون بالحضور، فمن أجل «أن تحكم على شيءٍ ما، عليك أن تكون موجوداً هناك»[١٩]. حيث العالم المنتج، أو تكون فيه عضواً منتجاً. وقد جاء في مقولة ليشنتبرغ الشهيرة: «كي نرى شيئاً جديداً علينا أن نخلق شيئاً جديداً». وعليه، فإن العولمة على الرغم من آلياتها التكنولوجية والإعلامية الجرارة فإنها تتسبَّب في قطيعة فكرية داخل القرية الصغيرة؛ لأن حل المشاكل والتحاور معها يكون عبر الشيء/الصورة والاختصار، وليس عبر الفكرة/الحضور والتواصل؛ لاسيما وأن «القرية جماعة متواصلة رغم التباعد المكاني وانعدام أدوات الاتصال. أما العالم الحالي فوسائل الاتصال فيه هي حوائل الاتصال»[٢٠].

العولمة هي فن الانتشار، وليس قرية صغيرة، فهي تركز على جمالية الانتشار وجاذبية الاختصار. فقوة الانتشار تكمن في طريقة الاختصار؛ بمعنى أن هناك اختصاراً في الوقت والحدث والأفكار والأشياء. من الخبرة التاريخية نستكشف أن الغرب في غزواته اللاإنسانية كان يستهدف تحقيق أهداف إنمائية غير مشروعة، والتي تجلَّت في الحروب الصليبية والاستعمار والعالمية والعولمة؛ إذ كان أكثر دموية في نزواته الاستغلالية والاستعبادية؛ فهو مخترع التفكيك الأممي، بينما القرية تحتاج إلى توسيع وتكامل وليس إلى تضييق وانفصال. إن «مفهوم الآخر قد تم تعريفه عادة من وجهة نظر الإنسان الأبيض- الإنسان الأوروبي، إلا أنني وأنا أمشي اليوم في قرية جبلية في إثيوبيا، يتراكض ورائي حشد من الأطفال يشيرون إليّ بمرح ويصرخون: (فيرينشي، فيرينشي)، والتي تعني (غريب آخر). هذا مثال على التسلسل الهرمي للعالم وثقافته: الآخرون هم آخرون حقاً، ولكن بالنسبة لهؤلاء الآخرين، أنا هو ذلك الشخص الذي يعتبر آخر. ومن هذا المنظور، نحن جميعاً نبحر في نفس المركب؛ جميعنا سكان هذا الكوكب آخرون بالنسبة للآخرين-أنا بالنسبة لهم، وهم بالنسبة لي»[٢١].

مثل هذه العولمة في توجهاتها المستقبلية وتطلعاتها إلى ما بعد المستقبل، لا يمكن بأي حال أن تعكس هذه الاستشرافات على عالم متخلّف يحن إلى ماضيه بطريقة بدائية؛ لأن العولمة، كما بيّنا سابقًا، هي موجة عارمة من الأفكار، بينما

١٨- يس، المعلوماتية وحضارة العولمة مرجع سابق، ص ١١٩.
١٩- ريتشارد كابوشينسكي، مواجهة الآخر: تحدي القرن الحادي والعشرين، ترجمة: وفاء صالح خضر، مجلة الثقافة العالمية، الكويت: ع ١٤٦، س٢٦، يناير- فبراير ٢٠٠٨م، ص١٢.
٢٠- أبو يعرب المرزوقي، آفاق النهضة العربية ومستقبل الإنسان في مهب العولمة، بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٩م، ص١٢٨.
٢١- كابوشينسكي، مواجهة الآخر: تحدي القرن الحادي والعشرين مرجع سابق، ص١١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العالم العربي هو أشياء صمَّاء غير قابلة للإبداع والإنتاج. فمن يمتلك الأشياء من غير أفكار تضبطها لا يصنع إلا القهر ويزيد من هوَّة الفقر.

٤ . أيديولوجية القرية الصغيرة

٤-١ سلطة الرفض للاختيار

العولمة بوصفها أفكاراً لا تتواصل إلا مع الأفكار التي تجاريها أو تعلو عليها، وإن اختلفت معها، وهذا ما يبرهن على نجاحها وتقدّمها في الدول الأوروبية التي تختلف في الفكر واللغة؛ أما في العالم العربي فهناك فقر في هذا المجال الحيوي، ومن هنا يستحيل الوصول إلى نتيجة مرضية لحل مشاكله في ظل طلبه المستمر للانتساب إلى العولمة في شكل انفتاح غير مسؤول يشمل التنازل عن اللغة والقيم والمبادئ، أو الانخراط غير المدروس في منظمة التجارة العالمية؛ حيث هذا الطلب يمرَّر من داخل قنوات الأشياء، حيث الاستيراد يبلغ ٩٥٪ والتصدير-المادة غير منتج لها- أيضاً هو الآخر يصل إلى ٩٥٪، بينما الأفكار التي من المفروض أن تكون في استقبال موجة العولمة فتكاد تنعدم من حيث فقدانها للأصالة والتجديد والسيادة.

تتطلَّب العولمة حضور هذه الثلاثية -الأصالة والتجديد والسيادة- داخل الأفكار، وإذا انعدمت ستجد العولمة فراغاً رهيباً في العالم العربي؛ مما يجعلها ضحية لإنتاج عناصر التخلّف. ومن هنا كيف لا تنبهر قرية صغيرة تئنُّ تحت وطأة الموت البطيء بمؤسسة ضخمة تمنحها الرغبة في معانقة العولمة. فالغرب صانع العولمة لا يرجو منها صناعة شروط التقدم في العالم، وذلك لأسباب تاريخية. ويخطئ العالم العربي القول إنه يأخذ من العولمة ما ينفعه ويترك ما يضره. ولو كان الأمر كذلك لتحقَّق له النجاح مع الايديولوجيات السابقة.

في عولمة التخلّف لا يوجد ما يختاره العالم العربي؛ لأن العولمة ليست مجموعة من الاختيارات، بل العولمة هي سلطة الرفض لكل اختيار في عالم يفتقد إلى الأفكار. العولمة تفكيك للمشروع الإنساني الذي هو أكبر من أن يحصر داخل قرية عولمية، وهذا ما وقعت فيه الحضارة الغربية التي ضيَّقت على الحضارات الإنسانية، «وهكذا ترانا نميل إلى تناسي علاقتنا مع إخواننا، ونسير في الطريق المؤدي إلى عدم الإنسانية. وحيثما يفقد الشعور بأن كل إنسان هو موضوع اهتمام عندنا لأنه إنسان، تترنح الحضارة والأخلاق، ويصبح الوصول إلى عدم إنسانية شامل مسألة زمن فحسب»[٢٢].

إن الأفكار هي التي تختار، أما الأشياء فلا تمتلك حرية الاختيار؛ ليس لأن الأشياء صمَّاء، بل لأنها امتلكت الإنسان في العالم العربي وصارت تفكِّر له، وأوهمته بأنه ينتمي إلى (قيم الإنسان) العالمية وغير الإنسانية في كثير منها، بينما هو ينتمي إلى قرية صغيرة تفرض عليه الانتظار وليس الاختيار.

٢٢- ألبرت اشفيتسر، فلسفة الحضارة، ترجمه عن الألمانية، عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٢٦-٢٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن الانتظار ناتج عن فقر في الأفكار والأشياء. فعلى الرغم من ثراء المعلومات داخل عولمة التقدم فهناك فقر في الاتصالات داخل عولمة التخلّف، مما ينسف مفهوم القرية الصغيرة. فعالم الاجتماع الفرنسي جيروم «يقرِّر أن هناك في العالم المعاصر ٦٠٠،٠٠٠ مدينة وقرية تفتقر إلى الكهرباء تضم نحو بليوني إنسان... وهناك أيضاً ٨٠٪ من سكان العالم ليس لديهم الوسائل الأساسية للاتصالات السلكية واللاسلكية»[٢٣].

لماذا تملك العولمة سلطة رفض الاختيار في العالم العربي؟ إن العولمة، والتي هي خلاصة تطور الأفكار في الغرب، هي ضرب من تطور الأشياء في شكل تنمية. فهذا التطوّر في الأفكار جاء نتيجة للخيارات التي أتيحت للإنسان الغربي من أجل الإبداع والإنتاج والإضافة، رغبةً منه في تحرير شعوب العالم من أحادية الفكر؛ مما جعل هذه الأحادية تسبح في فضاء واسع من الأيديولوجيات؛ حيث يكون الإنسان المسلم قد ضاع في هذا التيار المعاكس؛ لأنه ولج هذا العالم الواسع دون ضابط يضبطه، ومن ثم نرى أن هذا الإنسان قد فقدَ الوصول إلى ما وصل إليه الغرب، لأنه استشكل عليه فهم ما تأصَّلوا به، ومن لا أصول له لااختيار له.

يرتبط منطق العولمة بمنطق الأصول، وبمنطق من يمتلك حرية الاختيار، وهذه الآليات الفكرية هي التي تجعل الإنسان أكثر عطاء بأشيائه المتنوِّعة. فمنطق العولمة يشترط الأصالة والتجديد (التنوع)، ثم السيادة التي تتمثَّل في العولمة نفسها. كل هذه الآليات يفتقر إليها الإنسان المسلم لأنه لا يحسن الاختيار. فهناك من يختار له بحكم افتقاره للقيم الروحية الفردية من معرفة وإدراك ومسؤولية وإرادة واختيار؛ أما إذا حضر العطاء فهو يفتقد إلى الكفاية لأنه يفتقر إلى القيم الروحية الجماعية من تضحية وإيثار وإخاء؛ ففي غياب الإنسان كفكر سيغيب الخيار كفعل، وفي اضمحلال الفعل يحضر التخلّف.

يمكن توضيح هذا المنطق الغالب في هاتين المعادلتين:

- عولمة التنمية= إنسان مدرك لطبائع الأشياء+ أفكار عاقلة
- عولمة التخلف= إنسان امتلكته الأشياء+ أفكار غافلة

كما يمكن ترجمة هاتين المعادلتين إلى الشكل الرقم (١).

٢٣- يس، المعلوماتية وحضارة العولمة، مرجع سابق، ص ٢٤٨-٢٤٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشكل (١)

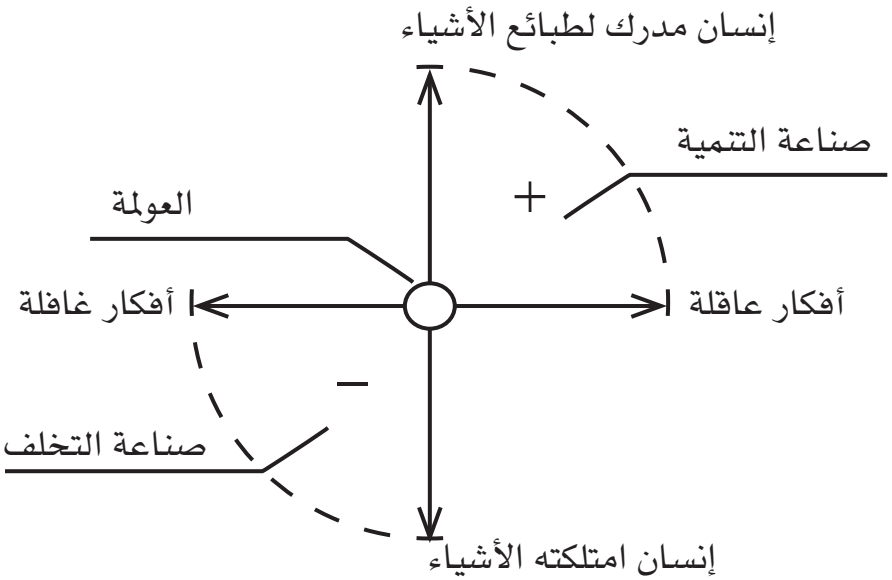

ما نستشرفه من "الشكل (١)" أنه كلّما اتّجه الإنسان المدرك لطبائع الأشياء في الاتجاه العمودي اتجهت الأفكار العاقلة في الاتّجاه الأفقي، وهي تحافظ على رتابتها. فالإنسان ذو الإدراك الحيوي هو مبدع الأفكار، وفي هذه الحالة تكون العولمة صانعة للتنمية، بينما في الاتّجاه السلبي يسلك الإنسان الذي امتلكته الأشياء الاتّجاه العمودي، وفي هذا كارثة على الأفكار؛ حيث تتحوّل إلى أفكار غافلة، وتظل تحافظ على رتابتها؛ مما يجعل العولمة صانعة للتخلف.

من هنا إذاً، يتضح أن العولمة عولمات، وليس عولمة واحدة أو قرية صغيرة. وهذا يؤدي بنا إلى إثارة السؤال القلق: هل خدمت العولمة العالم العربي في المجال الاقتصادي ودفعت به نحو إقامة سوق مشتركة كما هو الشأن في أوروبا؟ هل أسهمت العولمة في المجال السياسي بتوحيد أطياف هذا العالم الذي بعثرته آلياته الاستعمارية؟ إذاً، نشك في أنه توجد قرية صغيرة تشترك في المصير نفسه، وإنما هناك حدود ينبغي التوقف عندها، وبما أن هناك حواجز فهناك قرية صغيرة في عالم واسع ربما لا يعيرها أدنى اهتمام إلا للحصول على الأشياء، بينما العالم الواسع يصدِّر للقرية الصغيرة بعض التكنولوجيا التي تعد مشاعة ومربحة.

فلا شك أن هناك تكنولوجيا واستكشافات تحوطها السرية التامة، وسيكشف عنها للقرية الصغيرة في حينها. «إنه متى جاء الأوروبيون بفكرة ما، فإنها لا تعني غير تكريس هيمنتهم على العالم. وعليه، فإن العولمة من بنات أفكارهم، وسنرى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كيف أنها تصب في اتجاه يكرِّس إعادة بناء إمبراطوريتهم العالمية. ونشير هنا إلى أن الدول النامية ستدفع ثمناً باهظاً إذا استمرت في الأخذ بكل ما يأتي من أوروبا من رؤى وأفكار من دون فحصها بعين بصيرة ناقدة»[٢٤].

إن تبرير الانطلاق نحو العولمة بمسايرة الغرب في أيديولوجيته المتمثلة في القرية الصغيرة، سيؤدي إلى حرب داخل التاريخ والإنسان. فإذا ضاقت عولمة التنمية بعولمة التخلّف سوف تكون الغلبة لمن يمتلك قرار النفي خارج التاريخ. لأن القرية الصغيرة لا تمتلك هامشاً كبيراً للتفكير وصناعة الأفضل، وهذا ما يجعلها تفتقد رسالتها الكونية. فالرسالة هي طريقة متغيّرة في الفعل والبناء، ولو ظلّت عولمة العرب توهم نفسها بأنها قرية صغيرة لن ترتقي إلى المستوى الذي يبني ليخرج من البداوة، ويفعل ليخرج من التخلّف، وينتج ليتحرر من عبودية الاستيراد. القرية الصغيرة تجعل العالم العربي أكثر اتكالية على جاره، وهذه مصيبة قد تتطور ليصبح عالة على بيته. فعولمة التخلّف هي مدخل إلى الاستدمار وليس إلى الاستعمار فحسب. فانطلاقاً «من كونها بلداناً نامية، فإن الدول الإسلامية جميعها ستصير في يوم من الأيام جزءاً من إمبراطورية شمال الأطلسي إذا ما سارت العولمة بمفاهيمها المطروحة، والتي نراها ماثلة أمامنا في الوقت الحاضر»[٢٥].

٤-٢ إلغاء مفهوم استقلالية الإدارة

القرية الصغيرة تلغي مفهوم الإدارة وما تتميز به من فن إعطاء الأشياء قيمتها. فالاتكالية والعالة على الغير، تجعل نفسية الإنسان المسلم أكثر ارتياحاً إلى أيديولوجية القرية الصغيرة، فيسلّمها مقاليد إدارتها. إن تسليم الإنسان المسلم مقاليد الإدارة للأيديولوجية الماركسية واليبرالية والقمعية هو الذي جعل العالم العربي لا يتحكّم في أشيائه، سواءً من حيث الإنتاج أم التصدير أم العائد أم التوظيف للعائد؛ لأن الآخر الذي يفكّر للقرية الصغيرة هو من سيفرض أفكاره ويمنحها العناية اللازمة. لاسيما وأن الغرب يفرض بعولمته على العالم العربي أفكاراً جديدة تجعل من الأفكار القديمة تواجه صعوبة التجاوب مع الانتشار المذهل للعولمة، فإن كانت الأشياء قد فقدت فنَّها الإداري في التحكم في إنتاجها وعوائدها، فإن الأفكار ستتميَّع إن لم تصبح محل استهزاء. إن «فرض المفاهيم واللغة وتحديداتها، هي بكل تأكيد الوسيلة الأكثر فعالية لبسط السيطرة على العالم»[٢٦].

إن التطور في الأفكار هو خيار استراتيجي لم يستجب له العالم العربي الذي خدَّره الرفض الأيديولوجي لكل ما هو استراتيجي ومستقبلي. ففي ظل العولمة سيصبح التطور خيار المؤسسة التي تنتمي إلى العولمة، ولإنجاح مهمة العملية التطورية تشترط الولاء لأيديولوجية هذه المؤسسة الإدارية، وهذا ما يجعل الإنسان المسلم مرّة أخرى، لا يحسن الاختيار لنفسه، ليس لأنه لا يمتلك الأفكار

٢٤- محضير محمد، الإسلام والأمة الإسلامية: خطب وكلمات مختارة، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٢٩.
٢٥- المرجع نفسه، ص٢٩.
٢٦- المهدي المنجرة، قيمة القيم، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ط٣، ٢٠٠٨م، ص٩٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي تفكِّر له، وإنما لأنه يمتلك الأشياء التي يفكِّر بها؛ حيث تغلب الثانية على الأولى. فضلاً عن ذلك فإن نظرة الإنسان المسلم لأحوال العولمة هي نظرة شيئية مادية، وهذه النظرة لا يمكن أن تقرِّر الصحيح من الخطأ.

إن القرية الصغيرة التي تفرض أيديولوجية اختياراتها وقراراتها على العالم العربي، تجعله يجتر عوامل تخلفه. إن «واحداً من أسباب إخفاقنا في عولمة العالم، هو عدم القدرة على الانعتاق بالمبادئ والأفكار والابتكارات. فكثيراً من الإبداعات والتجديدات، لم يمارس أصحابها عملها باختيارهم بل لأن الخليفة أو السلطان طلب ذلك، أو لأن الظروف والبيئة فرضت عليهم ذلك العمل. فمعظم هذه الابتكارات والتجديدات لا يوجد بها نفحة الحرية والانعتاق، وبالتالي لا مسؤولية. فبقدر جرعة الحرية بقدر ما يكون هناك مسؤولية»[٢٧].

التنمية إذاً، حرية تدفع الأفكار والأشياء نحو السباحة في فضاء واسع ومتحرر من الإكراهات الأيديولوجية، وليس قرية صغيرة تضيق بها مجالات الاختيار والحرية، وتمنح للمتفوق سلطة فرض ما يراه مناسباً له ومتوافقاً مع مبادئه، وليس العكس تماماً. فالآخر لا يتودد إلى الإنسان المسلم حبّاً في أصالته وفق نص القرآن الصريح: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[٢٨]، بل يتودد إليه ليكون مثله في التفكير والتقييم، اللذين هما من عناصر العقيدة، وليس في الفعل والبناء اللذين هما من أدوات الرسالة. وعموماً هذا الآخر لا يود أن يكون غيره مثله تماماً، بل يكون التابع له -لاسيما إذا كان غنياً- أكثر تخلفاً ينتفع من غنى تخلفه.

الغرب الذي استطاع أن يحوِّل معظم شعوب أفريقيا إلى عقيدته مانع في أن ينتشلهم من تخلّفهم وفقرهم، ومن هنا نستنتج أنه إذا كانت عقيدة الآخر -بوصفها أفكاراً- في العالم المتخلّف تصنع التخلّف، كما هو الشأن في أفريقيا المسيحية، فكيف للعولمة التي يصدِّرها الآخر -بوصفها أشياء- لا تصنع التخلّف هي الأخرى في أفريقيا وآسيا اللتين تعدمان بادرة الإنتاج والابتكار؟ إن الغرب لا يعد المعرفة أولوية في نهوض الآخر، بل يحثه على دعم الزراعة والتحرير الاقتصادي وغير ذلك من النصائح المادية التي تفتقر إلى الدعم المادي، وذلك إن «الإشكال المزعج للبنك الدولي هنا، وقبله لتوجهات العولمة المؤمركة، أن الذي سيترتب على تلك الأولوية هو العودة إلى الحديث عن الاستقلال الوطني وحماية الاقتصاد الوطني وتحقيق التكامل العربي، ورفض استباحة البلاد من خلال الشركات العملاقة عابرة القارات- الناهبة لثروات الشعوب والقارات»[٢٩].

ما يفترض من الإنسان المسلم أن يضع نصب عينيه بأن القرية الصغيرة ليست قريته، فهي محكومة بعوامل أيديولوجية وتاريخية ومعرفية وتكنولوجية

٢٧- كامل أبو صقر، العولمة التجارية والإدارية والقانونية: رؤية إسلامية جديدة، بيروت، دار الوسام، ٢٠٠١م، ج ٢، ص١٣.
٢٨- سورة البقرة، الآية: ١٢٠.
٢٩- منير شفيق، تنمية إنسانية أم عولمة؟ دراسة تحليلية نقدية لتقريري التنمية الإنسانية العربية لعامي ٢٠٠٢م و٢٠٠٣م، بيروت، دار الطليعة، ٢٠٠٤م، ص٩٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قابلة للتغيير في ظل إبداع المغاير الجديد، وأن عقيدة المسلم التي تتفرّع منها عناصر التفكير والتقييم تربأ بنفسها من أن تحصر داخل حيِّز جغرافي ضيِّق، بل هي عقيدة تتطلع إلى ما وراء هذه القرية.

إن القرن الحادي والعشرين هو القرن الذي ينبغي للإنسان المسلم التفكير فيه، لأنه محكوم بسلسلة زمنية طويلة تمتد إلى ثلاثة أجيال قابلة للتحرر والفعل والبناء وحرية الاختيار. ففي العالم العربي الذي ضاقٍ بالأيديولوجية والديكتاتورية والفقر المنظم والإرهاب المستورد، «لا نملك شيئاً نخسره ولدينا كل الأسباب لننجح، فكان لا بد من بحث مسائل مهمة كالابتكار والتجديد والتكنولوجيا والمنافسة واستحداث أساليب وطرق عمل جديدة، وأن نشارك بصنع الأحداث وفق رؤيتنا، وأن تكون لدينا خطة استراتيجية وخطة عمل وخطة للانعتاق من التبعية، ولقتل وحش التخلّف والجهل لمهاجمة أشد المنافسين في أسواقهم وعقر دارهم، فصراعنا ليس صراع ثقافات، بل هو صراع بين الحق والباطل، ولدينا مهمة تتضمن الإطار العام لعملنا وأهدافنا، ولدينا أهداف محددة وواضحة يجب أن تتحقق.. المسألة ليست حلماً، بل حياة أو موتاً، فهل نجد ونبتكر ونضارب ونعولم أم نموت؟"[٣٠].

٥. العولمة والعالم العربي: بين الانتماء والابتغاء

تركز العولمة على ما ينبغي تصديره، بمعنى أن المعولِم هو الذي يفرض على المتوهِّم الحاجات المطلوبة، وليس العكس؛ فالعالمية منحت للعالم العربي استيراد ما ينبغي استيراده؛ حيث إن «العالمية هي طريق التعامل مع الآخر دون إقصاء أو تهميش، مما يؤدي إلى الانفتاح والتعارف والحوار والتفاعل والتعاون والتكامل. ومن ثم فإن العالمية تؤكد على الاعتراف المتبادل بين الأمم والدول وخصوصيتها الثقافية الحضارية»[٣١]. أما العولمة فهي صراع مستقبلي بين الثقافة والهويّة؛ حيث «العولمة تعني في مجملها سيادة نظام واحد للحياة في شتى المجالات، بحيث يشمل فكراً واحداً وثقافة واحدة وحضارة واحدة تفرض فقط على العالم بأكمله بحيث تلغي الآخر من الحسبان»[٣٢].

تعكس العولمة قيم الانتماء (قيم الإنسان) التي تفرضها الثقافة المنتجة، وليس قيم الابتغاء (إنسان القيم)، التي تدور في فلك الهويّة المكتسبة؛ حيث يعكس الانتماء البعد الأيديولوجي لتنظيم الكون، بينما يعكس الابتغاء البعد الاستراتيجي لإنقاذ الكون: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[٣٣]، فالصراع بين نقيضين. الانتماء يرى أن العالم يسير في اتجاه أيديولوجي قطبي، ولتنظيم هذا الصف الأيديولوجي ينبغي تحويل الجزء الآخر إليه، ولن يتمّ ذلك إلا بعملية الجذب الثقافي (تصدير الثقافة). إن «السياسات تُملى من قبل الهويّة الثقافية، كما أنها تتعلق بسيطرة الثقافة»[٣٤]؛

٣٠- أبوصقر، العولمة، ص ٢٨.
٣١- حسن سيد سليمان، العولمة وأثرها على أفريقيا، ورقة مقدمة إلى ندوة الجامعات والعمل الإسلامي في أفريقيا، جامعة أفريقيا العالمية بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية، الخرطوم: ١-٣ مارس ٢٠٠٤م، ص٢.
٣٢- المرجع السابق، ص٢.
٣٣- سورة آل عمران، الآية ٨٥.
٣٤- آدم كوبر، الثقافة: التفسير الإنثروبولوجي، ترجمة: تراجي فتحي، عالم المعرفة؛ ٣٤٩، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، س ج٢، ص٢٥٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بينما حكم الابتغاء يقوم على أن العالم على شفا حفرة من الانهيار الحضاري- الإنساني، والضرورة تتطلّب إنقاذه بتغليب الهويّة بوصفها عاملاً إنقاذياً على الثقافة بوصفها عاملاً تنظيمياً، كون التنظيم لا يمكن أن ينتظم في ظل الفوضى، إلا إنه يمكن إنقاذ هذا التنظيم من هذه الفوضى.

فالفوضويون يشكّلون الجزء الغالب من شطر العولمة، وهذا ما يجعل هؤلاء يفرضون منطقهم في هذه العملية التجارية التي تتخذ من عناصر التفكير والإنتاج والتصدير والتدمير، هدفاً لتوزيع هذه الفوضى، وحيث «إن تيار تبادل المعلومات والأفكار أصبح مستقلاً إلى حدٍّ كبير عن التجارة الدولية وحركة رؤوس الأموال، فأصبح الناس في أي جزء من العالم معرضين للتأثر في أفكارهم ومعلوماتهم حتى من مصدر ثابت لا ينتقل من مكانه، والذي يبث الأفكار والمعلومات دون الحاجة إلى نقل سلع أو نقل رأسمال»[٣٥].

العولمة إذاً، أيديولوجية تسعى إلى تنظيم نفسها بتوسيع دائرة الانتماء الثقافي بوصفها مرحلة أولى لاحتواء الثقافات الأخرى، وفصلها عن هويّتها في المرحلة الثانية؛ مما يجعل العولمة الوجه الآخر للعلمنة. فإن لم تفلح العلمنة في اختراق حاجز الوعي الإسلامي الذي تسهم الهويّة في ترصيصه، فإنها ستفلح عن طريق العولمة في اختراقه بذريعة الاقتصاد المستهلك للقوميات والتقنية المنتجة للعقليات؛ إذ «تكشف العملية التي أصبحت تدعى (العولمة) عن خط صدع عميق بين الجماعات التي لديها المهارات والقدرة على الحركة لتزدهر في الأسواق العالمية، وبين تلك التي إما ليس لديها هذه الميزات، وإما أنها تفهم توسع الأسواق غير المنظمة على أنه أمر ضارّ بالاستقرار الاجتماعي وبالمعايير القائمة بشكل عميق. والنتيجة هي تدهور حاد بين السوق والمجموعات الاجتماعية مثل العمال والمتقاعدين والبيئيين، والحكومة عالقة في وسط هؤلاء»[٣٦].

إن الانتماء للعولمة بالطريقة المتخلّفة يوقع العالم العربي في شرك التغاضي عن السلبيات، وهذه هي حالة المنتمي في الأمور الأخرى. فمثلاً المنتمي سياسياً لحزب ما، لا يرى إلا الإيجابيات في حزبه، وقد يتورَّط في عمله التاريخي، فلا يسمح لنفسه بالنقد الذاتي على الرغم مما يتكبّده من آلام ويصيبه من إحباطات؛ أما الابتغاء فشيء آخر تماماً، وهو حضور العقيدة كفكر وتقييم، والرسالة كفعل وبناء في أثناء التعامل مع المؤثرات الخارجية. فإذا حضر التقييم استقام الفكر، وإذا حضر الفعل استوى البناء.

ففي جميع المراحل التاريخية الرديئة نلفي العالم العربي قد تعامل مع الوافد من خارج قريته بدافع الانتماء الذي عرَّضه لمخاطر التخلّف، وذلك لأنه لم يستحضر التقييم والفكر كعقيدة، ومن ثم لم يوفَّق في الفعل والبناء كرسالة. في فترة تاريخية سابقة كان من يشير إلى الأيديولوجيات الاشتراكية والقمعية

٣٥- إبراهيم سعد الدين، وآخرون، العرب والتحديات الاقتصادية العالمية، بيروت،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٩م، ص ٧٠.
٣٦- داني رودريك، هل اشتطت العولمة؟ في: من الحداثة إلى العولمة، مرجع سابق ج٢، ص١٧٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالتخلّف يعد من الرجعيين، هذا ليس إلا لأن النقد الذاتي قد انطمست معالمه في غياب العقيدة والرسالة معاً، كما أن هؤلاء تعاملوا مع أيديولوجياتها من واقع الانتماء الذي يحيلها إلى أشياء مقبولة، وليس من واقع الابتغاء الذي يجعلها أفكاراً مرفوضة أو قابلة للنقد، ومعرَّضة للاستئصال إذا كانت تسيء للمستقبل.

إذاً، الانتماء دائماً ما يتعامل مع الأيديولوجيات على أنها أشياء ينبغي الاحتفاظ بها؛ أما الابتغاء فهو نسق من الأفكار الناضجة التي تجعل من الأشياء أشياء لها مهمتها الخاصة، ومن الوقائع الأخرى مهامَّ أخرى، طبعاً. إن «تحقيق الذات لن يتم بالتزام جانب في البنية العقدية، وأن لا بد من التعامل مع المنطوق الإسلامي في حلقاته كافة، وحينذاك يمكن أن نضع خطواتنا في البداية الصحيحة التي أرادها لنا اللّه ورسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام)، وأن نحصِّن أنفسنا ونتقدّم في الوقت نفسه بمشروعنا قبالة كل المشاريع الوضعية التي أثبتت عجزها وعدم قدرتها على مواصلة البقاء»[٣٧].

فإذا كانت للضرورة الفكرية الفلسفية مبرراتها كانتماء بدافع الحرية في الفعل، وهذا ما يطلبه الغرب لنفسه، فإن لضرورة القيم خياراتها كابتغاء بدافع الحفاظ على الهوية، وهذا ما لا يرتضيه الغرب للعالم العربي. فالقيم كابتغاء تستقي أبعادها المستقبلية من العقيدة التي تقف سدّاً منيعاً أمام الأفكار كانتماء، لأن كل انتماء لا يحمل بذوراً مثمرة دائماً. والغرب بعولمته يدرك خطورة ذلك على طموحاته، لأن الإشراف المعرفي الواعي على المبررات (الانتماء) بواسطة الخيارات (الابتغاء)، سيفجر في الإنسان المسلم طاقة الاستثمار الهائل المتوافرة من خلال امتلاكه الواعي لأدوات الماضي. فبالامتلاك الواعي الذي يفصل بين التراكم التاريخي للأشياء والتكاثر اللاعقلاني للأفكار، تبدأ رحلة البحث عن الذات والحياة معاً.

فالحاضر يتأسَّس وهو يحتضن الماضي فيهذِّبه، ويتطلَّع إلى معانقة المستقبل فيستشرفه. داخل هذه الرحلة الميدانية التي تجعل من الابتغاء طريقاً للإبداع وتقف على أن الانتماء هو طريق الاتباع نلتقي بحركة التاريخ، وحين نستقرئ أحداثها نجد أن القيم هي التي كانت تقيم عرساً جميلاً بين الإنسان والأشياء، فتحيله إلى مولود جميل تحار الأمم في تسميته. فهناك من يطلق عليه اسم التنمية، أو التطور، أو التقدم، وهلم جرا. وإن اختلفوا في التسمية فقد اتفقوا على أنها التنمية؛ الأهم أنها تنمية مصحوبة بأخلاق رفيعة، في الوقت الذي نلفي فيه أن «النزعة العلمية والسعي وراء التحسن التكنولوجي لا يخطبان قضايا الأخلاق أو القيم، في الحقيقة لقد أعلنا أنهما متحرران من القيم أو محايدان. وهذا الافتقار إلى الارتباط من قبل الخبراء والتقنيين يعتبر مُضعفاً وخطيراً على حدٍّ سواء»[٣٨].

٣٧- عماد الدين خليل، أولى ملامح القرن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٢م، ص ١١٠.

٣٨- مايك كرانغ، الجغرافيا الثقافية: أهمية الجغرافيا في تفسير الظواهر الإنسانية، ترجمة: سعيد منتاق، عالم المعرفة؛ ٣١٧ الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١٤٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن غياب فعل الابتغاء في العالم العربي أدّى إلى غياب القيم الروحية الجماعية، مثل الإيخاء، والإثار، والتضحية، وتجشّم عناء المسؤولية؛ هذه القيم السامية ذابت في فعل الانتماء. فالمنتمي لا يضحي إلا لمن ينتمي إليه، وإن كان يشوب هذه التضحية عامل النفاق والخوف!! فالانتماء هنا ينحصر في دائرة ضيِّقة تكون مسؤولة عن مزالق التخلّف الخطيرة وفجوات الفقر الرهيبة؛ أما الابتغاء فيوسِّع من دائرة الإنسانية ولا ينحصر في دائرة مغلقة على نفسها. الابتغاء يوسِّع من دائرة الاختلاف، أما الانتماء فيزيد من هوَّة الخلاف. وهذه مشكلة المنتمي -للماركسية وجميع الأيديولوجيات- الذي يأخذ بطرف ويرمي بالطرف الآخر، وكل هذا يلقي به داخل دائرة الخلاف الدائم، كونه يؤمن بأحادية الطرف، وحينما يؤمن بثنائية الطرف وتعدده سيلج عالم الاختلاف المثري والمعطاء (الابتغاء)، حيث عالم الإبداع.

إن أصالة المعنى من الابتغاء تشترط اختلاف الفكرة في أثناء الفعل بخلاف عولمة أحادية النظرة. فالإنسان فكر، والتنمية فعل، والقيم معنى، ولن يتحوَّل الفكر إلى فعل إلا بالابتغاء الذي ينتهي إلى وضوح المعنى، وهذا الأخير لن يمنحنا سره إلا بمعرفة الهدف والرسالة معاً. فبتحديد الهدف تتحقق التنمية، وبسمو الرسالة يسمو الإنسان، وإذا هو ولج العولمة كانت صانعة للتنمية وليس للتخلّف. إن «عناصر التنمية لا يجب أن ينظر إليها ضمن حدود الدولة الوطنية أو القومية، بل يجب أن تمتد ببصرها إلى أفق الأمة ضمن تفعيل مؤسساتها ونماذجها القيمية، وعلاقاتها التعاونية والبينية، وأن تحرك معنى الاعتماد على الذات ضمن دائرة الأمة الواسعة وكذلك مفاهيم الأصالة الثقافية»[٣٩].

كانت أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية تتبع طريق الانتماء لليبرالية أميركا، ولما تبيَّن لها أنها تسير في تجاه أحادية النظرة التسلطية غيرت مسارها تجاه طريق الأمة الأوروبية، حيث تبرز قوة المنطق الجغرافي والتاريخي، فضلاً عن القيم التي تتطلّب منها التصدي للهيمنة القطبية. فالتخلّف النسبي الذي كانت تموج فيه أوروبا بفعل الانتماء لليبرالية أميركيا تحوَّل إلى تنمية بفعل التزاوج الشرعي بين الأمة والدولة. فالانتماء غالباً ما يكون بدافع الحصول على الأشياء، وقد حصل هذا مع من كانت لهم مصالح دنيوية في الجاهلية وفي عصر الإسلام. وكذلك أوروبا التي انتمت لأميركا، التي سيطرت على صندوق النقد والبنك الدوليين، من أجل الاستفادة من مشروع مارشال.

لقد كان هدف أوروبا، بعد الحرب التي جلبت لها الخراب، هو كيف تنهض بواسطة الأشياء، وليس كيف تفكِّر بالأشياء التي كانت تفتقر إليها. وقد تزامنت هذه المرحلة مع حصول بعض الدول العربية على استقلالها المبكر، وهذا العالم

٣٩- سيف الدين عبدالفتاح، مقاصد ومعايير التنمية: رؤية تأصيلية من المنظور المقاصيدي، في: الأمة وأزمة الثقافة والتنمية، القاهرة: دار السلام، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ج١، ص٣١٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لا يكون متحرراً من الأشياء إلا بفعل الابتغاء، الذي يجعل التفكير منصبّاً على تحقيق الأهداف من داخل قناة العقيدة والرسالة معاً، بينما العالم العربي لا يزال يفضِّل فعل الانتماء على تراكم الأشياء عليه. إن «البلدان التي كانت العولمة أكثر نفعاً لها كانت تلك التي أخذت مصيرها بيدها وفهمت الدور الذي يمكن أن تقوم به الدولة في التنمية: لم تتكل على الفكرة القائلة بأن السوق التي تنظم نفسها بنفسها تستطيع أن تحل المشاكل التي تولدها»[٤٠].

ترى العولمة في الانتماء طريقاً إلى الاتباع المثمر والاستنزاف المستمر والاستعمار المقنَّع. فأن يختار العالم العربي الابتغاء سيعالج الأمور بحرية وروية، وأنّ يختار الانتماء ستؤدي به الأمور إلى إبداع استعمار في مستوى عولمة الحضارة. «إن فهم العولمة باعتبارها مشروعاً لـ (الهيمنة) يساعدنا في فهم محاولات إعادة رسم الخريطة الجيوسياسية والجيواقتصادية للمنطقة العربية بهدف طمس الهويّة العربية والتخلص من المشروع العربي بلا رجعة»[٤١].

٦. العولمة استعمار حضاري

نأمل أن لا يعاب علينا القول، إن العولمة استعمار لسبب واحد وواضح، هو أن العالم العربي مستعمَر من الداخل والخارج، من العلمنة والعولمة. وإننا ننطلق من قناعة بأن كل ما هو فقير -في عالم الرفاهية- فهو مستعمَر. فمن هو فقير في الأفكار استعمرته الأشياء واحتلت حيِّزاً كبيراً في تفكيره المتخلّف؛ بينما من هو فقير في الأشياء فقد استعمرته الأشياء نفسها. فالإنسان المسلم تحاصره الأشياء من كلّ جانب، لأن الأفكار هي الأخرى تتحوَّل إلى أشياء، والتي تفصل بين هذه اللحمة هي القيم. فبفعل القيم نميِّز الأفكار من الأشياء، وفي غيابها يستحيل التمييز بين العولمة بوصفها أشياء تصنع التخلّف وبين العولمة باعتبارها أفكاراً تصنع التنمية. تماماً كما لم يميّز العالم العربي بين النفط وهو يستثمره بوصفه أفكاراً توظف في التكنولوجيا وترسم طريقاً جديداً نحو التقدم والنهضة، وبين النفط باعتباره أشياء تصنع التخلّف.

فلو عد النفط أفكاراً لكان ارتفع به إلى مستوى إنتاج أشياء أخرى كما هو الأمر في الغرب، ولكن العالم العربي أصر على أن النفط أشياء فقط، ومن ثم لم يرتفع بها إلى مستوى الأفكار فتسبَب في فقر الشعوب واشتعال الثورات. إذا «بقينا عالماً يقترف مثل هذا التنافر في السلطة، وإذا استمر عدم المساواة في الزيادة بالمعدل الذي رأيناه خلال السنوات العشرين الماضية، فإن ما سنشهده هو حلول الاحتجاج محل السياسة، ومأسسة الاحتجاج والسخط ومعها اختفاء الديمقراطية نفسها، حتى عند تلك الأمم التي تفاخر بأنها ديمقراطية، وإذا لم تستعد الدولة الشعب فإن الشعب لن يستعيد الدولة، وإذا لم تُوزَع منافع العولمة على نطاق أوسع فإن الشعب سيظل يثور ضد العولمة»[٤٢].

٤٠- جوزيف إ. ستيغليتز، خيبات العولمة، ترجمة: ميشال كرم، بيروت، دار الفارابي، ٢٠٠٣م، ص٣٤٠.

٤١- حمدي عبدالرحمن حسن، «العولمة وآثارها السياسية في النظام الإقليمي العربي: رؤية عربية»، في: العولمة وتداعياتها على الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ٢٠٠٣م، ص٩٨.

٤٢- هيرتس، السيطرة الصامتة: الرأسمالية العالمية وموت الديموقراطية، مرجع سابق، ص٢٤٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تعامل الغرب مع النفط بوصفه أفكاراً تمنحه الطاقة لإنتاج أشياء أخرى، ومتى يتعامل معه على أنه أشياء سيفقد السيطرة على أفكاره ويتورط في الاستعمار. لقد تعامل الغرب مع خيرات العالم العربي باعتبارها أشياء فاصطدم معه في أشكال، مثل: استغلال الأشياء، وتشويه الأفكار؛ ولكن لما فكّر الغرب المستعمر بأن يتعامل مع الأشياء كأفكار استطاع أن يمتلكها. فكان منح الاستقلال للشعوب المستعمَرة هو التحول الخطير في كيفية التعامل مع الأشياء بطريقة تضمن حرية الامتلاك غير المشروعة.

إن الاستعمار المقنَّع يجعل التراب أحد مخلّفات الماضي؛ لأن الإنسان المسلم، وفي ظل هذا المنعطف السريع، قد يتخلى عن البناء الذاتي لصالح البناء التقني الجاهز، والذي سيوفِّر كل شيء بحيث تحل الأشياء محل التراب. لأن الأشياء الزاحفة قد تستعمر التراب بدوافع الزمن العولمي، في شكل مؤسسات متعدية الجنسيات وخدمات وتسهيلات وترفيهات، أمكنها أن تحوِّل التراب إلى مجرد قطعة متحركة لا يمكن لها أن تحتضن فكرة معينة أو ماضياً محدَّداً؛ حيث «الإنسان أصبح خليطاً مركباً تمتزج داخله مختلف الخصوصيات الإنسانية، ولهذا ينبغي تطوير الدراسات حول الديناميات الجديدة المرتبطة بالهويّة لمعرفة إذا ما كان الأمر يرتبط بالتقوقع والانطواء على الذات كما يدافع عن ذلك العديد من الباحثين. أم يرتبط بمعطى ومكون جديد أصبح يرافق التحولات الإنسانية باعتباره رد فعل ضد الآثار السلبية للعولمة، التي جعلت الفرد يفقد تدريجياً جوهره الإنساني وقدرته على صنع القرار والتأثير داخل مجتمعه»[٤٣].

علاوةً على ذلك، فإن العولمة استعمار حضاري لا يمكن مواجهته بالتحرير والثورة، مما سيؤدي إلى تنامي عنصر الإرهاب الذي يشتغل لدوافعه الخاصة بعيداً عن التنظيمات الداخلية (الرسمية). فالإرهاب بوصفه بديلاً عن الثورة والتحرير يشكل عقبة أمام الاستعمار الحضاري الذي يتعاطف معه الإنسان الرسمي ومثقف السلطة. فهناك صراع بين الهويّة في شكلها الانتقامي، وبين الاستعمار في شكله الحضاري، بمعنى أن هناك صراعاً بين الهويّة الفاقدة لثقافة توجيهية تأسيسية وهي تتحيَّن فرصة الانتقام (كما يتخيَّلها صناع القرار في الغرب)، وبين ثقافة استعمارية –أو لها قابلية للاستعمار– فاقدة لعنصر الهويّة تسعى إلى فرض سياسة الاحتواء الحضاري.

ونظراً إلى أن العالم العربي في حالة فقر مدقع فيما يتعلّق بالبعد الثقافي، فإنه سيعمل جاهداً للانفتاح على ثقافة الآخر، منتقصاً من مناعة الهوية تجاه هذا الاستعمار الحضاري. فالاتجاه عمودياً نحو ثقافة الآخر يفرض الاتجاه الأفقي نحو الهويّة كما هو مبيَّن في الشكل (٢). مثلما أن الاتجاه عمودياً نحو الأشياء يفرض الاتجاه الأفقي نحو الأفكار، كما هو مرتسم في الشكل (٣).

٤٣- محمد سعدي، كيف تؤثر العولمة في الهوية والقطبية، مجلة "آفاق المستقبل"، أبوظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ع٧، سبتمبر-أكتوبر ٢٠١٠م، ص٨٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بمعنى أن العالم العربي سيقف موقف المحافظ على الهويّة بالاتجاه نحو الماضي –ليس للاستثمار ولكن للانغلاق– أمام ثقافة الحاضر والمستقبل. وهذا أمكنه أن يفضي به في المدى الطويل إلى الضعف والاستسلام، بدلاً من إعمال بُعد الهويّة في ثقافة العولمة، واستثمار ما هو إيجابي منها لرسم معالم ثقافة محلية بهويتها وعالمية بإسهاماتها. فالهويّة لا ترسخ من غير حماية ثقافية محلية، والثقافة لا يمكن أن تتميَّز من غير هويّة.

فهناك قيم تاريخية مشتركة، وأسس حضارية راسخة، وأي انفصال سيفضي إلى الإخلال بعملية التنمية المركبة من القائد القدوة، والقيادة الرشيدة، والإنسان الطامح. نعم، "إنك تدفع ثمناً غالياً حين تفر من ثقافتك؛ وهذا هو السبب الذي يعطيك أهمية كبيرة لمحافظتك على هويتك المتميزة، وإدراك قوتك الذاتية، وقيمتك الأخلاقية ورشدك، عندها فقط يصبح بإمكانك مواجهة ثقافة مختلفة، وإلا فإنك ستنسحب إلى مخبئك وتقطع نفسك عن الآخرين بجُبن"[٤٤].

ما نصبو إليه في ظل العولمة من تعليم الجيل المسلم، ليس في أن يصبح متديناً، فمثل هذا الطموح صار بعيد المنال؛ ولكن نعمل قدر المستطاع، من أجل تلقينه الأفكار وتزويده بثقافة تمنعه من الانخراط في عصابات إجرامية، وأن لا يتعاطى المخدرات. أصبحت مهمة الدين مهمة عسيرة أمام العولمة وما تفرزه من إعلام غير مسؤول وغير أخلاقي. إن «أبناء الأمة لا يكونون في موقع تجديد هويّتهم إن لم يلتزموا ثقافتهم وخصائصهم؛ لأن الثقافة هي التي تقود الحركة الحضارية للأمة وتوجهِّها وتضبطها، وبالتالي هي التي تحكم حركة الإبداع والإنتاج المعرفي، في مقابل المدنية التي تتجه –غالباً– إلى حركة الإبداع التقني والمادي»[٤٥].

أليس هذا الإعلام هو من علم الناس كيف يشادون في دينهم بحجة الدفاع عن هويتهم وأخلاقياتهم، بينما يصف الإعلام هؤلاء بالإرهابيين؛ مَنْ أوجد مَنْ؟ مَنْ ثوَّر مَنْ؟ البحث عن حلول للإرهاب أضحى من مهمة العولمة وليس الدين. كيف نقنع المتدين أنه منحرف دينياً؟ كيف نقنع الإعلام أنه منحرف إعلامياً؟ كيف نقنع العولمة في العالم العربي أنها منحرفة دينياً وإعلامياً؟ فهل العولمة استعمار حضاري ينبغي أن نستعد للدخول معه في حرب حضارية. يقول الجابري: «هل العولمة هي (ما بعد الاستعمار) باعتبار أن الـ(ما بعد) في مثل هذه التعابير لا يعني القطيعة مع الـ(ما قبل)، بل يعني الاستمرار فيه بصورة جديدة؟»[٤٦].

ما يفهم من الشكل (٢)، أنه كلّما اتجه العالم العربي بثقافة الغرب في الاتجاه العمودي اتجهت به الهويّة في الاتجاه الأفقي، وفي هذا خطر واضح على مقوِّماته التاريخية والمعرفية؛ حيث تغيب العملية النقدية، لأن التخلّف ينبع من عدم توظيف

٤٤-كابوشينسكي،مواجهة الآخر: تحدي القرن الحادي والعشرين،مرجع سابق ص١٢.
٤٥-أسعد السحمراني، ويلات العولمة على الدين واللغة والثقافة، بيروت، دار النفائس، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
٤٦- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر: العولمة-صراع الحضارات-العودة إلى الأخلاق-التسامح-الديموقراطية ونظام القيم-الفلسفة والمدينة، بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٧م، ص١٣٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهويّة الإنسانية في البناء والفعل؛ مما يؤدي إلى الدخول في منطقة التخلّف؛ أما في الشكل (٣) فكلّما اتّجه العالم العربي بالأشياء في الاتّجاه العمودي اتّجه بالأفكار في الاتّجاه الأفقي، وهذا ما يجعله متمركزاً في منطقة التخلّف.

الشكل (٢)

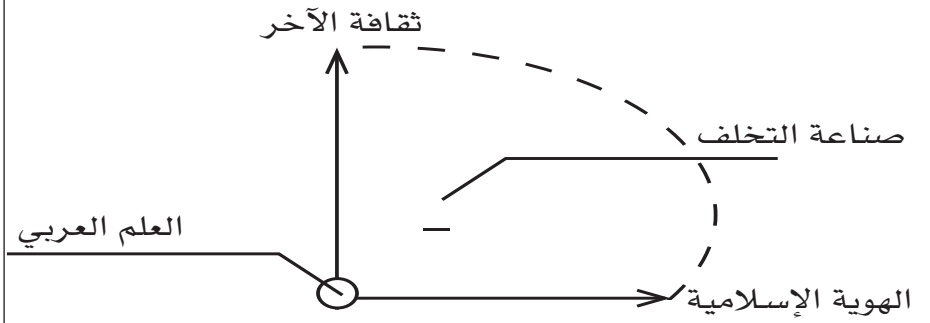

الشكل (٣)

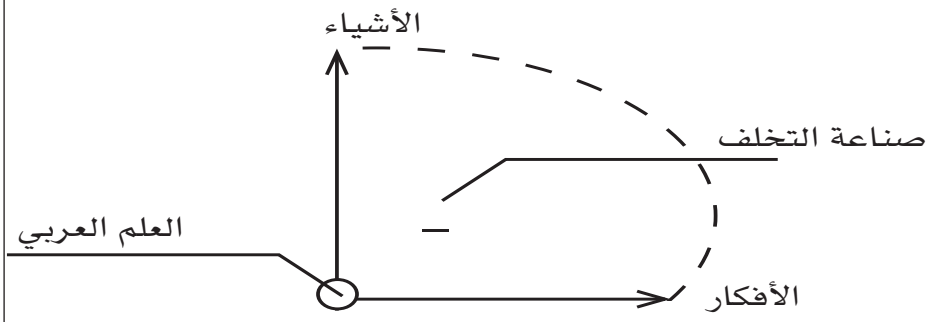

إن إجراء مقارنة بين الشكلين (٢) و(٣) ، تنتهي بنا إلى أن ثقافة الغرب تُعامَل في العالم العربي على أنها أشياء، كونه يستوردها من أجل الانتفاع بها باعتبارها أيديولوجيا تكون له بمثابة الغداء الروحي، وليس باعتبارها أفكاراً من أجل الارتفاع بها إلى مستوى النقد، سواء بالقبول أم بالرفض. كما أن الهويّة قد تتحول إلى أفكار تعبِّر عن نفسها كأيديولوجيا، أو تحوُّل في العقيدة وخلاف في الرسالة؛ حيث بداية صناعة التخلف. فالارتفاع الفكري ضروري للحصول على الأشياء لأن الأفكار دافع للإنتاج وليس العكس؛ حيث «تواكب عملية بناء القاعدة المعرفية عمليات بناء القاعدة المادية، فلا إنتاج يذكر دون معرفة على مستويات مختلفة. إن النمو المادي والتقدّم فيه مرتبطان أيضاً بمستوى الثقافة والتفكير العقلاني على مستوى المجتمع كله. فلا يمكن أن ينتج مجتمع يعاني الفقر والجهل»[٤٧].

٤٧- إسماعيل صبري، وآخرون، التعاون الاقتصادي العربي بين القطرية والعولمة بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠م، ص ٤٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إن التخلّف ناتج عن الاهتمام الزائد بالأشياء على حساب الأفكار، كما أنه ناتج عن الاهتمام بثقافة الغرب على حساب الهويّة. وكل هذا قد استفادت منه العولمة في تطورها التاريخي الذي حولّها إلى ما هي عليه الآن. وداخل هذا المنطق المستشكل تكمن مداخل الاستعمار الحضاري لاسيما في ظل تضعضع وظيفة الدولة، فمما «لا شك فيه اليوم أن مسار العولمة يقلص من دور الدول. فروبرت رايش يرى أن تفتُّت الاقتصاديات الوطنية أمر حتمي حتى ولو كان انعدام الأمن والخطر والإفقار ثمناً لذلك»[٤٨].

٧- تداول الحضارة

هناك صراع بين حضارة تذوب أمام مفكِّريها وحضارة تنوب عنها بمفكِّريها. هناك فكر حضاري يتميّز بخصوصيته، وهناك حضارة فكرية هدفها الترويج للعولمة باعتبارها حضارة كونية، وإن كان يستحيل تكريس أيديولوجية فكرية تكون في قطيعة مطلقة مع هويتها. صحيح، إن هناك خصائص داخلية مختلفة قد تنفصل تكتيكياً عن بعدها الخارجي، إلا أنها تتجّه صوب الهدف الاستراتيجي المنظم. هذا إذا عددنا أن الهويّة محمية دينية، على خلاف الثقافة التي تختلق أكثر من مبرر لفصلها عن «الفكرة الدينية»، لاسيما أن اختراق المجال الثقافي أيسر من اختراق الهويّة؛ لأن الهويّة اكتساب تاريخي يتكيّف مع الزمان والمكان، بينما الثقافة إنتاج حضاري.

ولهذا فإن الحضارة المنتجة هي عصارة العامل التاريخي؛ مما يجعل الثقافة في العالم الغربي متحضّرة لأنها على صلة بمنتوجها العلمي، بمعنى أن الثقافة تسهم في الإنتاج العلمي بفعل الحوار الحضاري بين الثقافة والعلم؛ بينما نرى أن المطلب المجاهيري على المستوى السياسي الإسلامي في تباعد صارخ مع ممارسة النخبة. وهذا معناه أن الهويّة المكتسبة تختلف عن الثقافة المعطاة (الاستهلاكية). فالاكتساب يسهم في الإنتاج، بينما الاستهلاك يبعث على التضخم. وباعتبار أن الهويّة عملية إنتاجية، فإن دورها التهميشي على مستوى الممارسة يوسِّع من هوَّة التضخم الداخلي.

فعولمة التخلّف ستصطدم بهذا الاكتساب التاريخي، مما يجعلها تطفو على السطح الثقافي المستهلك، ولا تقدِّم بديلاً عن تخلف العالم العربي. لأن هناك حاجزاً دينياً حاولت النخبة المثقفة المنتمية اختراقه منذ قرون، ولكن لم يسعفها النجاح في استثمار هذا التعثُّر الإنمائي في جميع المراحل التاريخية. وستبقى على هذه الحالة البائسة ما ظلت تحتقر إنسانها وأفكارها وترابها وقيمها ورسالتها. كما «علينا أن نتخلّص من أوضاع رد الفعل الدفاعية هذه، وأن نرد بالتقدم بخطابنا الخاص، واستراتيجيتنا الخاصة وأهدافنا، ولغتنا، ولكن ما زلنا بعيدين عن ذلك»[٤٩].

٤٨- جاك فونتانال، العولمة الاقتصادية والأمن الدولي: مدخل إلى الجيواقتصاد، تقديم: كينيث آرو، ترجمة: محمود براهم، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٣٣٠-٣٣١.

٤٩-سمير آمين، «البديل للنظام النيوليبرالي المعولم والمسلح: الإمبريالية اليوم وحملة الولايات المتحدة للسيطرة على العالم» في: المجتمع والاقتصاد أمام العولمة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٤م، ص١٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من جهة أخرى يقول ستيغليتز -الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد- عن العولمة: «نحن الذين خلقناها، ونحن الذين يجب أن نعمل على إصلاحها. وإذا أردنا أن نرد على التخوُّفات المشروعة للمستائين من العولمة، وأن نضع هذه في خدمة مليارات الناس الذين أخفقت في نظرهم، وأن نجعل لها وجهاً إنسانياً، فنرفع الصوت، وليكن عالياً ليس في وسعنا ولا يجوز لنا أن نبقى صامتين»[٥٠].

٨. خاتمة

أوهمت العولمة العالم العربي بأنه يعيش عصر ما بعد التنمية، مما يجعله لا يتعاطى مع أدواء التنمية التي أصبحت في عداد المنتهية صلاحيتها كما تروج العولمة. في ظل هذا الوضع الردئ لن يفكر العالم العربي في تنمية قدراته بالاعتماد على ذاته، وإنما سيكون منشغلاً بالحلول الجاهزة التي تجلب له تنمية متخلّفة تكون مستعدة للذوبان في عولمة التخلف، وليس تنمية ذات خصوصية تبغي مزيداً من الاستقلال الحضاري.

ما هو معروف عن العولمة أنها تعمل بذكاء على تصميم قيادة اقتصادية واجتماعية في العالم العربي تسهم في تنمية التخلّف. فهناك أشخاص، في منطقة التنمية وبذل الجهد، كانوا شيئاً منسياً، ولكن عندما ولجوا منطقة العولمة، ليس بقدراتهم الذاتية طبعاً، أصبحوا شيئاً مذكوراً. فهم لم يحققوا نجاحاً لأمتهم، وهم في منطقة التنمية، ولم يتمكنوا من تنمية قدراتهم الذاتية، لأنهم كانوا يفتقدون إلى آليات التمكين في الأرض الواسعة؛ ولكن لما انتقلوا إلى القرية الصغيرة، وصاروا صغاراً، في منطقة ما بعد التنمية (العولمة)، حدثت فجأة نقلة، رقمية وليست نوعية -شيئية وليست فكرية- في حياتهم الشخصية حبيسة عالم الأشياء الذي حشرتهم فيه طبيعة العولمة.

تضلل العولمة أصحاب الخبرة الناقصة في العالم العربي، وتوهمهم بأن الرقم المعلوماتي كفيل بتحسين هذه الخبرة. بهذا التفكير العولمي يكون صاحب الخبرة الناقصة أداة في خدمة هذا الرقم المعلوماتي؛ حيث إن التحكّم في هذا الرقم والتفوّق عليه أمر واهم.

تحاول العولمة أن تفصل بين التنمية وما بعد التنمية، فنلاحظ البنوك الإسلامية تبحث لها عن مكان مستقل في شكل معاهد خاصة منفصلة عن الجامعات؛ هذا لأن الجامعات لا تزال تمثل عصر التنمية وتستفيد من إيجابيات العولمة بتدريس طلابها القيم التي تحمي كيان الأمة الإسلامية؛ بينما البنوك الإسلامية بوصفها معاهد مستقلة تعد نفسها تجاوزت عصر التنمية عبر الرقم المعلوماتي، ومن ثم ليست معنية بالقضايا الإنمائية المحلية فطموحها عالمي، وعليه انتقلت إلى عصر ما بعد التنمية؛ ولكن يبدو أنها تغرق في سلبيات العولمة ولا ترى فيها إلا أشياء تدفعها بها إلى العالمية.. وربما إلى الهاوية كما رأينا في الأزمة المالية وسنرى.

٥٠- ستيغليتز، خيبات العولمة، مرجع سابق، ص٣٤٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مركز التنوير المعرفي

EPISTEMOLOGICAL ENLIGHTENMENT CENTER

مركز التنوير المعرفي

Epistemological Enlightenment Centre

Sudanese Ethics

Critical Revisions on Nordenstam's Model

Contributors:

Dr. Abdalla Ibrahim AL Shukri.
Dr. Haider Ibrahim .
Dr. Idris Salim.
Dr. Khalid AL Mubarak .
Dr. Mohammed Abdalla AL Nagarabi.
Dr. Sabri Mohammed Khaliel.
Dr. Shamsaddien Yonus Najmaddien.
Dr. Sulaiman Yahya Mohammed.

Translated by: Abdalla Humaida

أحد إصدارات مركز التنوير المعرفي